اقرأ

نماذج من النساء

٢٧١

محمد زكي عبد القادر

رسم الغلاف بريشة يوسف فرنسيس

٥ قروش ج. ع. م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١٫٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليما فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

نماذج من النساء

محمد زكي عبد القادر

نماذج من النساء

اقرأ ٢٧١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٧١ – يولية سنة ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

هذه نماذج من النساء ، رسمتها من الواقع ، فيها سمات من تضحية تبلغ أحياناً حد القداسة ، وفيها قلق يبلغ أحياناً حد الانحدار ، ولكنها جميعاً تصور نماذج من المرأة تسعى بيننا ونصادفها فى كثير من الأحيان .

وهى ، بعد ، تسرى فيها جميعاً الغريزة بنبضها السليق والعاطفة بسموها الوجدانى . ومن الالتحام بين الاثنتين تجد المرأة ، ولكن لماذا المرأة ، قل تجد الإنسان .

محمد زكى عبد القادر

الخطيئة . . هل ورثناها ؟

ما من ضجة حولى الآن ، كل شىء هادئ ، الساعة جاوزت الحادية عشرة ليلاً ، هل أقرأ فى كتاب أو أقرأ نفسى ؟ هل لى اختيار حتى فى هذا ؟ كلا ، أحياناً تحلو لى القراءة وأحياناً يحلو لى التأمل ، وأحياناً لا تحلو القراءة ولا التأمل ولا يحلو شىء فى الحياة ، يثقل كل ما فيها .

وراجعت ما حدث اليوم ، استحضرته ورحت أتأمل فيه ، المخطئة التى اعترفت لى بذنبها وسألتنى : ماذا ترانى ؟ هل أنا امرأة فاجرة ؟

واستعدت فى خاطرى كيف أجيبها فرأيت أننى لم أجب بشىء ، سكت فترة من الوقت ، ثم قلت لها كلاماً ، لا هو صريح ولا غامض .. لا هو تأثيم ولا تبرئة . ولم تقنع أو تقتنع بحديثى قالت : أنت لا تريد أن تجابهنى بحقيقة رأيك فىّ ، ولكننى أعرفه . . أنت تحتقرنى الآن .

وأحسست بنفسى تنتفض وأنا أقول لها : كلا . . وهل من حقى حتى إذا كنت مخطئة أن أحتقرك . . ربى وربك هو الذى يرعاك ، وما أنا إلا بشر ، إنسان ركبته الذنوب من يمين ويسار . . أنا وإياك ، نحن البشر جميعاً ، نخطىء ونتوب .

سكتت لحظة ثم قالت : العجيب فى الأمر أننى لم يتولنى ندم على ما فعلت .

— وضميرك . .

— هذا هو ما يزعجنى . . كنت أشعر كأن زوجى شريك فى الجريمة . . كنت كأننى أنتقم منه . . أهملنى وانصرف عنى ، حتى كلمة العطف الرقيقة لا أسمعها منه ، إنه هو الذى دفعنى . كنت أحس بشبحه ورائى ، يستحثنى إلى الخطيئة إذا ابتعدت عنها . .

وتأملت : هل نحن فضلاء لأن غيرنا لا يدفعنا للخطأ ، أم ينبغى أن نكون فضلاء حتى ولو دفعنا الغير إليه ؟ هل الفضيلة نبض فى النفس مجرد من كل مؤثر خارجى ، أم أنها نوع من المعارضة والمفاضلة ؟ هل هى التزام ذو طرفين ، لا بد أن يفى كل واحد بالتزامه حتى يصح التزام الطرف المقابل له ، أم أنها جوهر أصيل لا دخل له بأى التزام من الخارج .

وهذه المرأة التى سكت ضميرها ، هل سكت لأنه لم يكن موجوداً من قبل ، أم سكت لأنه هو الآخر فهم الفضيلة على أنها التزام فى مواجهة طرف آخر ؟ هل سكت لأن المفاجأة أسكتته وسيستيقظ حينما تذهب المفاجأة وآثارها ؟ هل سكت لأن الرغبة فى الانتقام من الزوج المهمل أسكتته ، وسيستيقظ حينما تهدأ سورة الغضب فلا يبقى إلا الخطأ والصواب ، الفضيلة واللافضيلة ؟

لقد قالت لى هذه المرأة إنها فى عذاب مر ، لأن صديقها بعيد عنها . . إنها تبكى ليلاً ونهاراً ، تصرخ أحياناً وتهدأ أحياناً وسكتت لحظة ثم استطردت : أريد أن أتخلص منه . لا استطيع أن أقضى الحياة فى هذا الوله وفى هذا القلق . .

هل بكاؤها وقلقها ولهفتها وولهها يرجع إلى أنها تريد حقا أن تفترق عن هذا الرجل ، أم أنها جميعاً غطاء للشعور بالذنب ؟ هل البكاء والصراخ من أجل الرجل البعيد عنها ، أم أنهما من أجل الخطيئة التى ارتكبتها . . وهل صحيح أن ضميرها لم يندم أم أنه إختار وسيلته للندم على هذه الصورة المغطاة ؟

هل تريد أن تتخلص من هذا الرجل لأنها لا تطيق أن تعيش فى عذاب البعد عنه ، أم أنها تريد أن تتخلص منه لأنها تريد أن تتخلص من الخطيئة والندم ؟

ثم قالت شيئاً آخر : المأساة عندى إننى لست واثقة من أنه يحبنى كما أحبه . . لقد فاجأته مع امرأة أخرى وغضبت . . انقطعت عنه شهراً أو شهرين ، ثم عدت إليه . . إننى لا أؤمن أنه يحبنى .

ـــ وأنت هل تحبينه ؟ أواثقة أنت من شعورك ؟

ـــ وماذا يكون هذا الشعور إذن ؟

ـــ ربما كان اندفاعاً للانتقام؟ ربما كان رغبة فى الذنب . . مجرد رغبة . أنت ترين زوجك منصرفاً عنك، وأنت ترينه لا يرعى حرمة العهد بينكما ، ربما كان دبيب شر خفى يغريك بأن تذنبي أنت أيضاً . . ربما كان ما تحسينه من لوعة الآن ليست لوعة الحب الخالص ، ولكن لوعة الإهمال الذى تعانينه من زوجك ، ولوعة الحاجة التى دفعتك إلى أن تخطئى . لا تقولى إن ضميرك مات . . لا تقولى إنك لست نادمة ، ولكن قولى إن الأمر مختلط عليك . . إن ما فى قلبك خليط متداخل من

الغيظ والقلق والندم والرغبة فى أن ترى رجلا يهتم بك ، والتمنى لو كان هذا الرجل هو زوجك . فكرى فى الأمر قليلاً ، تأملى نفسك . . حللى مشاعرك، فربما كان فى هذا التحليل ما ينقذك من الاندفاع فى الخطأ.

والسؤال الآخر الذى تأملته والليل يوغل والهدوء شامل واعترافات هذه المرأة تعود إلى خاطرى ثم تلح إلحاحاً: هل الحب شعور مجرد هو الآخر لا يعتمد على شعور الطرف الآخر، أم أنه معارضة ومقابلة ، لايمكن أن يعيش وحده فى التربة الجافة ؟

وربطت السؤالين أحدهما بالآخر : هل الفضيلة والحب كلاهما يمكن أن يكونا مجردين عن تصرف الآخرين ، أم أنهما مشدودان بهذا التصرف وجوداً وعدماً ؟

والجواب شاق . فإذا قلت إنهما مجردان وجدت عشرات الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى . وإن قلت إنهما مرتبطان بتصرف الآخرين وجدت عشرات الأمثلة التي تؤيد هذا الرأى . إلا أن الأمثلة وإن كثرت لا تضع قاعدة عامة ، فلا بد من تحليل هذين الجوهرين : الفضيلة والحب.

هل ورثنا الفضيلة والحب بين ما ورثناه من عواطف ونزعات وغرائز أم هما نتاج المجتمع وإملاؤه . هل الوراثة هى التى تشكلهما أم هو المجتمع ، فإذا كنا قد ورثناهما فهل ورثناهما مجردين أم ورثناهما ومعهما ميراث آخر هو الخطيئة بالنسبة للفضيلة والتحول أو الغدر بالنسبة للحب ؟

إن الديانات والأساطير تقول إن آدم وحواء ارتكبا الخطيئة فى أول الخليقة فطردهما ربهما من الجنة . الخطيئة إذن صاحبت الإنسان منذ

البداية ، ولا بد أنها اختلطت بدمه منذ الميلاد الأول . ولو أراد الله للمخلوق الأول أن يكون مبرأ من الخطيئة ما أغراه بها ، ولو أراد للمخلوقة الأولى أن تكون مبرأة من الخطيئة ما أغراها بها .

لا شبهة إذن فى أن الخطيئة ولدت مع الإنسان ، كما ولدت معه الفضيلة ، وهما ما يعبر عنهما بالخير والشر ، وهما جوهران متقابلان ، وهما طرفا الصراع منذ بدء الخليقة ، وسيظلان كذلك إلى أن تنتهى الخليقة ، والقول بأن الفضيلة جوهر مجرد من الخطيئة قول غير مقبول ، فإنها لا تتميز إلا بالصراع مع الخطيئة ، ولولا وجود الخطيئة ما أصبح للفضيلة مدلول متميز واضح المعالم .

وقد قال المسيح إن الإنسان هو ابن الخطيئة ، وهو يعنى أن الخطيئة ولدت معه . ولو كانت الفضيلة جوهراً مجرداً ما احتجنا إلى تعلمها والحض عليها ، وما احتاج الله جل جلاله إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية .

وإذا كانت الفضيلة تولد مختلطة بالخطيئة وتعيش فى صراع معها ، وجب أن نسلم بنتيجة لا بد منها وهى أنها تتأثر بتصرفات الآخرين ، وبالوسط والمجتمع والقوانين والنظم وحكم التطور .

أما عن الشطر الآخر من الموضوع ، وهو المتعلق بالحب ، فيمكننا أن نسائل أنفسنا أيضاً : هل وجد الحب كالخطيئة ، منذ الخليقة الأولى ، وهل كان ما بين آدم وحواء حبا أم كان شيئاً آخر .

لا يمكن التسليم بأن ما كان بين آدم وحواء حبا ، لأن الحب يتطلب الاختيار والاختصاص وكلاهما لا يكون إلا بين أشخاص متعددين ،

ولم يكن هناك تعدد ، كان هناك مخلوقان اثنان فقط .

ما كان بين آدم وحواء إذن لم يكن حبا ، بل كان غريزة خالصة بين امرأة ورجل . وهو ما يجعلنا نقرر بأن الغريزة سبقت الحب . وليس معنى أنها سبقته أنها حتما أقوى منه .

متى نشأ الحب إذن ؟ وهل هو مجرد من الغريزة أم أن فيه طابعاً منها ؟

نشأ الحب حينما تكاثر الناس وارتقوا فى سلم الحضارة والفهم ، وتخلصوا من بداوة الغريزة ، ولا يمكن القول بأنه مجرد من الغريزة ، والصحيح أنه أسلوب مهذب للتعبير عنها . وأن ينشأ من لا شىء أو غير مستند إلى شىء قديم موجود أمر غير متصور. والذين يتحدثون عن الحب العذرى يتحدثون فى الواقع عن الغريزة المتسامية ، فهم لا يهملونها حتى فى هذا النوع من الحب .

هل الحب عاطفة مجردة من تصرفات الآخرين ؟ هل هو جوهر مستقل بذاته يمكن أن ينشأ ويعيش وينمو ويزدهر دون نظر إلى ما إذا كان الطرف الآخر يحسه أو يمارسه ؟

الجواب أنه بطبيعته يتطلب التجاوب فإذا نما فى قلب واحد ولم يجد له صدى فى قلب آخر ، فلا بد أن يضمر ويضعف مع الأيام ، وينحدر إلى منطقة الذكريات ومنها إلى منطقة اللاوعى .

هل الحب فضيلة كاملة مجردة من الخطأ وفى عبارة أخرى هل الحب لا يمكن أن يقبل الغدر أو التحول ؟

إن ما قررناه عن الفضيلة يصدق أيضاً على الحب ، وليست فى الدنيا

فضائل مجردة . وإذا قلنا إن الحب فضيلة فهو فضيلة يتصارع معها الشر ، والشر بالنسبة للحب هو الخداع والغدر والتحول ، وما هو مطلوب منك لكى تحمى فضيلتك من الشر ، مطلوب أيضاً لكى تحمى حبك من الشر وحياته السليمة موقوفة على مقدار ما تبذل لكى تحميه من عوادى الزمن .

ودعك ممن يقولون إن الحب إذا وجد فلن يموت ، فإن الحب كائن حى ككل الكائنات الحية . وما يصدق عليها يصدق عليه ، ولا حياة لكائن تهب عليه الرياح فلا تحميه منها . . لا حياة لكائن تتركه من غير رعاية ، من غير ماء إذا جف ، ومن غير هواء نقى إذا أوشك أن يختنق بالهواء الفاسد . . وما نسميه غدراً فى عالم الحب ليس إلا نوعاً من جفاف الحب أو اختناقه .

ماذا تريد المرأة ؟

قالت : « إنى سعيدة . أحب زوجى وأولادى . لا ينقصنى شيء . أجد الحب والعطف والحنان . وأشعر أنى معززة . زوجى يمنحنى ما يستطيع أى زوج أن يمنح. لست فى حاجة إلى مال؛ فعندى منه ما يكفى وزيادة. ولكننى أشعر أننى مقيدة . كنت أريد أن أكون حرة أذهب حيث أشاء وأصنع ما أشاء . لا تسيء الظن بى فلست أريد أن أبحث عن حب ولست مستعدة له . لست أريد أن أجرب نزوة فليست لى نزوات . لست أحب أن أجرب مغامرات العاطفة ، فقد جربت بما فيه الكفاية قبل زواجى . كل ما يضايقنى أننى لا أستطيع أن أذهب أو أجيء إلا بأمر من زوجى أو من والدى . وإنى لأخاف زوجى بصورة لا تكاد تتصورها . وقد تعجب إذا عرفت إنى أحب هذا الخوف وأضيق به . وكثيراً ما فكرت أن أتمرد عليه ، ولكن حنيناً خفيا إليه ، إلى الخوف ، كان يجذبنى دائماً إليه . ولست أدرى إذا منحت الحرية التى أريدها هل أكون سعيدة بها أم لا ؟

« إنها مجرد خواطر أردت أن أفضى بها إليك . وفى أحيان كثيرة يحلو لى أن أغيظ زوجى ، فلا يزيد على أن يقول : إذن سأذهب إلى السهر فى الخارج ، فلا أكاد أسمع هذا حتى يتولانى خوف مرعب فإذا أنا أعتذر إليه وأكاد أقبل يديه وقدميه . . لست أدرى على التحديد ماذا أريد ؟ أريد أن

أخاف وأن أطمئن . أريد أن أكون حرة ومقيدة . أريد أن أحس بشخصيتى وأريد أيضاً أن تنمحى شخصيتى . أريد أن يثور زوجى فيقذفنى بما فى يده وأشعر إزاءه بضآلة وخوف ورعب . أريد أن أبكى فيتذلل ويمسح دموعى ، وأريد أن يغضب ، فأركع عند قدميه أسأله المغفرة والصفح . كأننى أسألها من إله . أريد أن أتصوره كأنه لعبة فى يدى ، ثم يطغى شعور أكثر صدقاً إننى أنا اللعبة فى يده . أريد أن أتخيل — مجرد تخيل — إننى صاحبة سلطان عليه ثم أؤمن فى قرارة نفسى أنه صاحب السلطان ، وإننى رعية ضعيفة ضئيلة فى ظل قوته التى لا حد لها .

وكثيراً ما فكرت فى أن أغضبه ، لأن هدوءه أحياناً يثير أعصابى ، وكثيراً ما أفعل فيستهوينى غضبه ويستهوينى أكثر أننى أخاف . ولا تظن أننى غير قادرة على التمرد والحصول على الحرية الكاملة التى أنشدها ، ولكننى أتمرد فقط إلى الحد الذى أشعر فيه أن سلطانه قائم ثم أعود كالقط الوديع آوى إلى صدره وكأنه قلم أظافرى وهزمنى فى معركة خيالية من صنعى.

هل أنا شاذة ؟ لا أدرى ولكن هذا هو أنا ؟ .

سكت لحظة ثم قلت : ليس فيك شذوذ . . هذه هى المرأة .

أنوثة مجروحة

شهدت فيلم «سجن النساء» ورأيت كيف تتحكم المرأة فى المرأة وكيف تذيقها مما فى نفسها من عقد ألواناً من القسوة والعذاب . وحمدت الله أن النساء فى البرلمانات لم يزد عددهن إلا زيادة طفيفة جدا. . وفى السجن مجتمع كله من النساء . لا يدخله الرجال أبداً . ومع ذلك فإن الإنسان الوحيد الذى أحس بقسوة المرأة على المرأة كان رجلا ، وكان الرجل الوحيد فى السجن ، وهو طبيبه .

وقف الطبيب يصارح مديرة السجن ، ويقول لها : أنت تكرهين كل بنت فى داخل هذا السجن . ما من واحدة منهن إلا أحبت وشعرت بسعادة الحب . . أما أنت فتعانين قحطاً فى عواطفك . لا بد إنك سكبت قلبك عند قدمى رجل ولكنه لم يجد فيه الدفء والحرارة والأنوثة فهجرك إلى أخرى . . امرأة قد تكون فى هذا السجن أو فى خارجه . . ولا سلطان لك على الخارجات منه فأنت تصبين نار نقمتك على التعيسات اللاتى أوقعهن القدر تحت يديك . .

وتقول له المديرة . إننى أصلح ، أنفذ القانون . .

فيقول لها : لا ، إنك تنتقمين . . تنتقمين لحبك الخائب ، لأنوثتك التى أهينت .

وتقول له : نحن هنا لا نعالج حالات الهستريا .

فيقول لها : أنت هنا توجدين حالات الهستريا .

وتقول له : لا تتدخل فى عملى . . اخرج من هنا .

ويخرج . ولكنها تعرف أن ما يقوله هو الحق ، فتمسك رأسها بيديها ولكنها بدل أن تزداد عطفاً ، تزداد قسوة فلا يجرح المرأة شيء قدر أن ينكشف من نفسها ما تريد إخفاءه . إن سرها أعظم شيء لديها وأعز شيء عندها . . إنها تجفل ممن يقرأ خوالجها ، لأنه حينئذ يجردها من سلاح غموضها وسحرها .

وتعرف المديرة أن إحدى السجينات تنتظر مولوداً ، بينما هى فى السجن منذ سنتين . وتدل التحريات على أن زوجها سجين فى قسم الرجال الملاصق لسجن النساء وأنه استطاع أن يتسرب إلى قسم النساء ويتصل بامرأته . ويجن جنون محافظ المدينة ويقول للمديرة : لا بد أن تعرفى كيف دخل الزوج قسم النساء .

وتستدعى المديرة الزوجة وتسألها كيف وصل إليك زوجك ؟ فتقول المسكينة إنها لا تعرف ، ولا تصدق المديرة فتضربها وتقسو فى ضربها .

أكان غيظها لأن الزوجة المسكينة تحجب عنها معلومات تعرفها ، أم كان غيظها لأنها زوجة ولأنها ستصبح أما ولأن زوجها يحبها ، واستطاع أن يتخطى القضبان لكى يصل إليها ؟

أكان غيظها من الزوجة لأنها أنثى استمتعت بكل ما تحب الأنثى أن تستمتع به ، بينما حرمت هى كل متاع ؟ أكان الصراع بين المرأتين صراع أنوثة مهيضة محرومة وأنوثة نامية مشبعة ، أم صراع سجينة خاضعة

للأوامر مع مديرة عليها أن تنفذ الأوامر .

أغلب الظن أن طبيعة الصراع تجعله صراعاً بين أنوثة وأنوثة ، فقد كانت فيه مرارة لا تكون إلا نتاج الغيظ من قلب مجروح ونفس مريضة .

وأنقلت المديرة على الزوجة بالضرب والركل المشرب بالغيظ حتى قضت عليها . وتمردت السجينات وأوثقن المديرة وأردن قتلها . فقال لهن الطبيب : كلا ، اتركوها إنها متهمة بالقتل لا تضيعن حقكن بجريمة أخرى..

وأحس الزوج السجين بأن أمرأته ماتت بسبب اعتداء مديرة السجن عليها فأخذ مسدسه وذهب يبحث عنها . . وتدخل البوليس والحراس ، وساد السجن هرج شديد . وفى الوقت الذى كان الزوج يوشك أن يطلق الرصاص على المرأة القاسية القلب ، الأنثى التى تمردت على أنوثتها لأنها لم تعرف كيف تستمتع بها ، جاء الطبيب والمحافظ ، فإذا المرأة قد اختلط عقلها وأصيبت بمس من الجنون .

الملل أو الهروب ؟

شكت إلى صديقتها والدموع فى عينيها ، قالت : لست أدرى ماذا دهانى . . كنت أحب زوجى ، أحبه حب العبادة . . تزوجته بعد قصة غرام طويلة أنت تعرفينها ، كانت نظرته تأسرنى ، حديثه يهز كيانى هزا . . . ومرت سنوات وأنا فى غمرة من هذا الحب كأنها السحر . . . كنت أقارن بينه وبين أصدقائه فأجده أحسنهم خلقاً ، وأقواهم شخصية وأوضحهم رجولة . . . هل كنت مخطئة لأننى قارنت . . . إن الذى يحب لا يسمح لنفسه أن يقارن حبيبه بأحد . إن المقارنة باب خاسر تدخل منه ريح ملعونة . . إن وجودها ، مجرد وجودها ، أعنى المقارنة ، تؤدى إلى نتيجة حتمية هى أنه من المحتمل أن يوجد من يروق فى عينى أفضل منه ، وأنه إذا وجد فمن المحتمل أيضاً أن تخون عينى ويخون قلبى . . .

وظللت هكذا فترة من الوقت ولكننى لم أجد أحداً يفوق زوجى فكان حبه يزداد ويثبت . . هل كان حبا خالصاً أم كان ما يسمى بحب المقارنة أعنى الحب القائم على أن هذا الإنسان أفضل من غيره . . إلى أن وقع ما سأرويه لك الآن . .

أنت تعرفين فلاناً هذا إنه صديق جديد لزوجى لم يكن ممتازاً عن غيره وأدخلته فى المقارنة فرجحه زوجى بمراحل... ومرت الأيام وانشغل زوجى أكثر مما كان مشغولاً ، كنت إذا احتجت إلى شىء من الأشياء الصغيرة

التى تحتاج إليها كل زوجة وكل بيت ، تركيب عداد النور فى الشقة الجديدة ، كهربائى لإصلاح الأسلاك ، نجار لإصلاح الموبيليات ، شماعة صغيرة للملابس ، متر قماش تكملة لفستان ، تأشيرة على جواز سفر ، . . زراير من لون معين ، دبابيس ، أى شىء من الأشياء الصغيرة العديدة . . كنت إذا احتجت أى شىء من هذا وأبديت رغبتى فى الحصول عليه ، سرعان ما أجده حاضراً . . كان هذا الصديق من النوع « الخدوم » بينما زوجى من هذا النوع – الرجالى – الذى لا يهتم بالأشياء الصغيرة . . كان زوجى يوفر لى كل شىء مهم ، ويترك لى هذه الأشياء الصغيرة معتمداً على أننى أستطيع أن أقضيها بنفسى ، ولكننى كنت أجد متعة كبيرة إذا قضاها هذا الصديق لى . . . كنت أدفع لكل خدمة مقابلها ولكن اهتمامه بأن يقضى لى هذه الأشياء الصغيرة أخذ يتسرب إلى نفسى شيئاً فشيئاً وأعده كأنه فضل ، كأنه تقدير ، كأنه احترام ، كأنه اهتمام بى أنا نفسى ، . . لست أدرى ماذا حصل ؟ هل يمكن أن تتسرب العاطفة من هذا الباب الصغير التافه ، وهل يمكن أن ينشأ الحب ، وهو شىء عظيم شامل كامل ، من زاوية ضئيلة كهذه الزاوية ؟

* * *

هذه هى مأساتى أخذت أهتم بهذا الرجل شيئاً فشيئاً وكما قلت لك لم يكن يفضل زوجى فى شىء بل كان زوجى يفضله فى كل شىء . . لكن أعجب ما حدث . أن أخذ خاطر مزعج يتسرب إلى نفسى قليلا قليلا ، بطيئاً ضئيلاً غير منظور أول الأمر ، ثم واضحاً قويا شيئاً فشيئاً . . إننى أبدى

رغبتى فى هذه الأشياء أمام زوجى فإذا بهذا الرجل يقضيها بينما لا يعيرها زوجى إلتفاتاً . . . . إذن أنا امرأة لا قيمة لها فى عين زوجى ، طلباتى يهملها أو ينساها أو لا يبذل أى مجهود لكى يقضيها لى . . . بينما يفعل هذا الرجل الذى لاتربطه بنا إلا رابطة صداقة كل شىء من أجلى . . يحصل أن أطلب شيئاً أكون قد بحثت عنه فى السوق ثم لم أجده ويكون زوجى حاضراً ، ويكون الطلب ليس موجهاً لأيهما ؛ بل لا يكون طلبا على الإطلاق مجرد روايه ، بحثت عن هذا الشىء فلم أجده ، وتمر أيام أكون أنا نفسى قد نسيت هذا الشىء أو افترضت أنه من المتعذر الحصول عليه فإذا بهذا الصديق فاجئنى بأنه عثر عليه . .

أخذت أمثال هذه الأشياء الصغيرة تترك فى قلبي لمحات صغيرة حتى كثرت وأصبحت لكثرتها كأنها شملت قلبي كله . . . هل هذا معقول . ؟ هل معقول أن تتحول هذه الاهتمامات الصغيرة بأشياء صغيرة من مجرد صداقة إلى شىء فى القلب ؟

وسكتت الصديقة !

وتابعت المرأة حديثها بينما استمرت صديقتها فى الإنصات إليها باهتمام: لست أريد أن أحلل عواطفى كيف بدأت وكيف تحولت وكيف عمقت . . يكفى أن أقول لك الآن إننى فى محنة . تحول اهتمامى كله من زوجى إلى هذا الصديق . . أصبحت أضيق بوجود زوجى ، وأتمنى اللحظة التى يجىء فيها هذا الصديق . . . إنها مأساة يا صاحبتى .. هل تتصورين إلى أى مدى بلغ بى الحال ، لقد تمنيت لو تركت زوجى وتزوجت هذا الصديق .

وشهقت صديقتها وقالت فى دهشة : وتتركين أطفالك . .

أجابت المرأة وهى شبه منومة : وأترك أطفالى .

قالت الصديقة : إن هذا ليس حبا .

سألتها الزوجة : وماذا يكون إذن ؟

قالت : نوع من الهروب . . نوع من الملل .

وسألت الزوجة : ومن المسئول عن هذا الملل ؟ من المسئول عن هذا الهروب ؟ أنا أم زوجى ؟

وسكتت لحظة ثم سألت : ألا يمكن أن يموت الحب بسبب الملل ؟ ألا يمكن أن ينشأ بسبب الرغبة فى الهروب . .

قالت صديقتها : إن المرأة الملول لا تحب والمرأة الهاربة لا تحب . . إنها مجرد امرأة تنشأ فى قلبها عاطفة جديدة كنوع من التعويض أو هروباً من حياة الملل . .

— تعنين أننى لا أزال أحب زوجى . .

قالت الصديقة : أنا واثقة إنك ما زلت تحبينه . . . هل لو لم يظهر هذا الصديق . . أعنى قبل أن يظهر هل كنت تشعرين بفراغ فى قلبك ؟

— كلا ، كان زوجى يملؤه . ولكن ألا يمكن أن يطرد حب جديد حبا قديماً ؟ وفى عبارة أخرى ألا ينشأ الحب إلا إذا كان القلب فارغاً . .

قالت الصديقة : الحب الجديد لا يطرد حبا قديماً ، ولكنه يدل على أن الحب القديم لم يكن حبا كاملاً .

قالت الزوجة : إذن أنا بين حالتين ، إما أن حبي القديم

لزوجي كان حبا ناقصاً ويكون حبي للرجل الجديد حبا كاملاً ، وإما أن يكون حبي لهذا الرجل مجرد هروب أو مجرد ملل . . ولكن من يستطيع أن يقطع فى أى الحالتين أنا ؟

— أنت . . أنت وحدك . . قولى لزوجك أن يقلل من اتصاله بهذا الصديق واجتهدى أن تقضى شئونك بنفسك . . . جربى . .

— لا أستطيع ؟ .

— بل تستطيعين . . ولا تنسى أيضاً أن العاطفة التى نشأت فى فؤادك قد لعبت فيها العادة دوراً كبيراً . . لقد اعتدت أن ترى هذا الرجل . أصبح بعض الروتين فى حياتك ، أشبه بالتدخين أو شرب الخمر . . المدخن أو شارب الخمر يظن أنه لن يستطيع أن يعيش سعيداً من غير الخمر أو الدخان ولكنه لو استطاع أن يتخلى عنهما ، أعنى عن العادة ، لوجد أنه يستطيع أن يعيش بدونهما أفضل مما كان يعيش بهما . .

— تعنين أن الحب عادة أيضاً .

— هو كذلك، حتى إذا فرضنا أن حبك لهذا الرجل حب كامل . .

وفرت دمعة من عين الزوجة ، وجاء ولدها الأكبر من المدرسة فى هذه اللحظة . . طرق الباب واندفع منه إلى أحضان أمه وقال الصبى : اليوم عرفت أننى الأول فى الإنشاء العربى يا ماما. وأخذته أمه فى أحضانها وغمرته بقبلاتها وفرت دمعات أخرى من عينيها ونظرت إلى صديقتها وقالت وهى تكاد تشرق بالدمع والابتسام والحنان : سأحاول وسأستطيع .

حياة كاملة

بدأت معه حياة نصف ميتة ، وبدأها معها موتاً فيه نصف حياة ، وما البال ببداية ليس فيها إشراق ولا ابتسام .

ماذا صنعت ؟ كانت تكمل ما ينقصها بالأخيلة والأحلام ولكنها خشيت أن تنفصل عن الواقع فتصبح أمامه جثة وتصبح بينها وبين نفسها ناراً شديدة الاضطرام .إنه ينشد الزواج وهى تنشد الحياة. إنه ينشدالجسد وهى تنشد الروح والجسد . تعبيره عن الحب حسى ، وتعبيرها عنه روحى ، كثيراً ما حاولت أن تجذبه إلى الروح فجذبها إلى الجسد . ولا جسد لها ما دامت لا روح لها .

فكرت أن تنفصل عنه ولكن مضات من حب ربطتها إليه ولمحات من عقل حكيم ردتها إلى شىء من الأناة والصبر .

وقالت : لعل الأيام تصلح ما أفسدته خيالاتى ، أو تصلح ما أفسده الواقع الذى يعيش فيه ، كانت تحلم بالقبلة فى فيض من المنى والأحلام فمنحها إياها فى فيض من رغبة الجسد والشهوات . تمنت أن تضمه إلى صدرها والطيور مغردة والصباح ينشر على العالم بشارة الهناء فضمها إليه والليل موهن والأضواء حمراء .

قالت له : انظر ما أجمل الصباح .... دعنى أستقبله على صدرك وأحلم . . . أغمض عينى . إننى فى حاجة إلى أناملك أحس

بإطباقها الحلوة على جفونى . . . هل تعرف إننى أحب أناملك إنها أجمل شيء فيك . .

ضاق بها ولم يطق صبراً وقال : أعدى الإفطار إن ورائى اليوم لعملاً طويلاً . دعينا من الأحلام، إن الدنيا واقع والزواج امرأة ورجل .

ــ وهل قلت أنا إن الزواج رجل ورجل أو امرأة وامرأة ؟ إنك لا تحس أجمل ما فى الحياة . أنت تفصلنى عنك وتردنى إلى أحلامى وحدى . أنت تعيش فى واقع عملك طول النهار ،لا تعيش معى فى أحلامى ساعة من نهار، إنها غذائى . لقد أحببتك فمالك تردنى إذا أردت أن أستمتع معك بفيض مما فى هذا الصدر ساعة من ليل أو ساعة من نهار ؟

ــ كنت معك ليلاً بطوله . . .

ــ كان جسداً ياصاحبي . ألا تعرف أن الروح أيضاً تريد الارتواء ...

ــ دعينى من هذا السخف . . . إنه خيال كتاب وشعراء .

* * *

وخرج وانطوت على نفسها . . . نظرت إلى ما حولها من جمال والتمست الشريك الذى يفهمه معها فلم تجد إلا الصمت ولم تسمع إلا همسات فؤاد كليل وجسد أنهكته شهوات عمياء . لقد كرهته . . . كرهت هذا الجسد الجميل . لقد أحبه زوجها ولم يحبها ، إنه غريمها . . شعرت باشمئزاز . إنها هنا جسد ، لحم وعظم ، امرأة محجوزة على ذمة رجل ورجل محجوز على ذمة امرأة .

يا لغبائها . . . لم تفهم . لقد قال لها من أول يوم : الزواج امرأة ورجل .

وقالت له بل الزواج حياة كاملة .

وجعلها جزءاً من حياته وجعلته هى كل حياتها .

إنها تعسة وأتعس ما فى الأمر أن أحداً لا يفهمها .

الأمومة والجنس

جرى الحديث فى هذا المساء حول الصداقة والحب وأيهما أدوم . وسأل أحد الحاضرين : إذا تحولت الصداقة إلى حب هل تبقى الصداقة عنصراً منفصلاً عن الحب أم أنها تندمج فيه حتى إذا انتهى الحب أو اختفى ، ذهبت الصداقة أيضاً .

وتطرق الحديث إلى تفاصيل عديدة . ما هى عناصر الصداقة وما هى عناصر الحب ؟ وهل الأنانية صفة ملازمة للصداقة كما أنها صفة ملازمة للحب ، وهل يوجد حب من غير أنانية ؟

واختلف المتحدثون كل فى سبيل . وكان بين الحاضرين رجل واسع الثقافة عميق النظرة والصوت ، هادئ قليل الكلام . اعتصم بالصمت منذ احتدم الجدل والحديث ، ثم بدا أنه يريد أن يتدخل ، فصمت الجميع . وبدأ الرجل يتكلم . قال :

ربما كانت القصة التى سأرويها لكم الآن ليست حاسمة فى الإجابة على أى سؤال من الأسئلة التى أثيرت الآن . ولكن خذوها من واقع الحياة وصوروها كما تشاءون . كان لى صديق ، بل زميل نشأنا معاً منذ الطفولة ودرجنا إلى الصبا والشباب ، لا نكاد نفترق يوماً حتى نلتقى فى اليوم التالى . انقطع عنى هذا الصديق فترة من الوقت كأنما قد غيبه جب أو أخذته جنية من جنيات البحر . بحثت عنه فى كل مكان ، فلم أعثر

عليه. سألت عنه من يعرفونه ، فقالوا إنهم يبحثون عنه ولا يهتدون إلى مقراه.
ثم ظهر بعد غياب دام بضعة أشهر . لمحت عليه إشراقاً لم أكن أعهده فيه ، ونضارة كانت قد ذبلت بعد وفاة أمه، وكانت له كل شئ . قال : لقد وجدت الأم والصديقة . فتاة من الإسكندرية . وأنت تعرف أن عملى يقتضينى السفر إلى هذه المدينة من وقت إلى آخر . وهناك التقيت بها فى حفلة عامة . وقدمنى إليها صديق قديم . وهى عذراء ربما لا تعدو الثالثة والعشرين من عمرها . وكانت أول عبارة وجهتها إلىّ بعد أن انصرف صديقى: يبدو أنك حزين .. قلت : ولكننى أضحك أحياناً . قالت : الضحك يظهر الحزن أكثر مما يخفيه ، لا بد أنك فقدت إنساناً عزيزاً عليك .

قلت : بل أعز إنسان . .

قالت : أمك ؟ .

دهشت وسألتها كيف عرفت ، وهى لم تلتق بى إلا الآن ، فأجابت : لأن أعز إنسان هو الأم ؟

قلت : ولمَ لا تكون الزوجة أو الحبيبة ؟

قالت : إن حب الأم فيه الصداقة والإيثار وحب الزوجة والحبيبة فيه الأنانية والتملك . وأنا فقدت أمى قبلك وأشعر بحاجتى إلى صديق .

واستطردت فى همس وكأنها تحدث نفسها ؟ . . إلى إبنى .

شعرت بعزاء عجيب . وتصورت روح أمى وكأنها انتقلت إلى روح هذه الفتاة ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً .

ضحكت فى عمق وسلام نفس وقلت : ولكننى عجوز لكى أكون ابناً .

ومن غير وعى ، رويت لها قصة حياتى كلها . لا تتعجب . شعرت كأننى أروى متاعبى لأمى . وكانت عينا الفتاة تضيئان فى إشراق علوى ، وربتت على كتفى والدموع تترقرق فى عينى وقالت : أخى هنا ، سأقدمك له .

ولا أطيل عليك . عرفت أخاها ودعانى إلى منزلهم . ومنذ ذلك اليوم أحسست أننى إنسان جديد . لا أقول لك إننى أحببتها كما يحب الرجل المرأة ، ولكننى سموت بحبها إلى ما هو أعلى وأقدس . أحببتها كأم وصديقة ورائدة ومرشدة . هل تتصور أن الشعور الجنسى لم يتحرك فىّ قط وأنا أنظر إليها وأتحدث .

وعجبت أيضاً لأنها كانت كذلك . سألتنى ذات مرة : ألم تحب فى حياتك ؟

وعجبت أكثر لأننى وجدت فى نفسى إستجابة سريعة فحدثتها عن حبى وأملى وخيبتى وحرمانى . وأنت تعرف هذا كله . واستمعت إلىّ دون أن تضيق بشىء . إنها أمى التى تستمع . فى عينيها بريق حنان وفى وجهها إشعاع رحمة وبين نبرات صوتها إعزاز ومحبة .

هل تتصور ؟ استغنيت بها عن كل أصدقائى ومعارفى . وأحسست بالضعف العجيب من دونها وبالقوة العجيبة معها . هل هذه العاطفة حب؟ صداقة ؟ أمومة ؟ أم هى مزيج من هذا كله ؟

* * *

وسكت الرجل . ولاح أنه يريد أن يسمع منا ويعرف صدى قصته فى

نفوسنا . سأله أحدنا : وهل انتهت القصة ؟ أجاب : إنها بدأت ، ولا تزال واقفة عند هذا الحد .

وقال واحد من الحاضرين : إن هذه العاطفة ليست صداقة ولا حبا . إن الفتاة تشبع فى نفسها رغبة الأمومة . والرجل يلتمس العزاء عن أمه التى فقدها .

وقال آخر : بل هى عاطفة حب ، تستخفى فى رداء الأمومة

وقال ثالث : يصعب الحكم عليها قبل أن تعرف النهاية . إن العواطف تتحول وتتبلور وتتخذ أشكالاً عديدة .

وقال رابع : مهما يكن من أمر ، فإن الصداقة ستظل عنصراً ثابتاً فى هذه العلاقة .

وقال الرجل الذى روى القصة : إن صاحبي لا ينظر إلى الفتاة كصديقة . إنه ينظر إليها كأم .

واتفقنا جميعاً على أن فى هذه العلاقة عنصراً جنسيا وإن بدا غير ظاهر فى هذه المرحلة .

إشعال السيجارة

دخلت النادى ومعها رجل .

سيدة فى ثياب سوداء حداداً أو أناقة ؟ لست أدرى . ولكن إذا صدقت فراستى فإنها حداد ، وحداد من أجل زوجها ، فقد كان فى وجهها أسى وفى جمالها انطواء، وبين شعاع عينيها خفوت ذابل . . . من هذا الرجل الذى يرافقها إذن؟ لولا ثياب الحداد لقطعت بأنه زوجها . . . ربما كان أخاها أوأحد أقربائها، وربما كان صديقاً من أصدقاء زوجها الراحل، بدأ يرثه . ومن يدرى لعله رمى شباكه من قديم، وهو الآن يجنى الثمرة التى دان قطافها .

وكانت المرأة من هذا النوع الذى يتلظى فى نار محرقة لا يحسها إلا من يعرف سر الشعاع المنبعث من عينيها أما الذى لا يعرف فيكاد يقول : ملاك أضعفه الحزن وهدّه سهد الكارثة . وكانت تسير فى سلام يقظ وصمت صاخب . حفيف ثوبها كأنه يتحدث ويتحدى . وقع خطواتها موج متدافع . وهمس كلامها عطر مخدر . فى الثلاثين من عمرها ، وربما فى الخامسة والثلاثين ، جمعت الأسلحة كلها فى يدها ووقف الحزن على هامتها ، والحزن فى ثياب امرأة فى الثلاثين سحر لا يقاوم .

الرجل الذى كان إلى جوارها ضئيل، ضئيل . . هو ضخم ، ضخم ، طويل عريض ، ولكن ليست فيه سمات رجل .. وماذا يصنع المسكين والشعاع

الذى يسير فى ظله يكاد يحجبه عن الأعين ، فلا ترى غير هذه المرأة ذات الرداء الأسود .

ألم يصادفك رجل وامرأة فى الطريق، فى النادى،فى المدرسة فى أى مجتمع وأحسست مع ذلك كأن هذه المرأة تسير وحدها ، وكأن هذا الرجل واحد من غمار الناس ينظر إليها كما ينظر غيره . . ألم تشعر كأن هذه المرأة يمكن أن تقتحمها الأعين ، وأنها حصن من غير حارس ، لأنها حصن شامخ بنفسه على الحارس الضئيل الذى وضعته الأقدار عند بابها .

كان هذا شعورى وأنا أرى هذا الرجل و لمد، المرأة .. شعرت أنها أقوى منه عشرين مرة . لم أشعر أنها تحس فى أعماقها بظل يحميها وإنما شعرت كأنها ترجو ظلا آخر يحميها .

* * *

وأقبلا على حوض الاستحمام . وسلمت المرأة على رجل خشن سميك، برّى أو يكاد . ولاح أن رفيقها يعرفه أيضاً ولكن معرفتها به كانت أوثق من معرفة صاحبها ، لأنها وجهت إليه سهام عينيها . . شعاعهما وسحرهما ، وأضاء الشعاع والسحر ، وانبثقت منهما ابتسامة رقيقة فيها فتنة ، فيها إغراء فيها نداء ، فيها عرفان، فيها يقظة كانت نائمة ، فيها لمحة ماض بدا كأنه مات وهو الآن يتثاءب ، وكأن الروح تدب فيه من جديد . لست أعرف ربما جمعت الابتسامة هذا كله ، فمن فى الدنيا يعرف ماذا تعنى ابتسامة امرأة فى الثلاثين ترتدى ثياب الحداد . .

وقدم إليها الرجل سيجارة . أخذتها فى عمق وكأنها تقبض على شىء



السيدة هور مع ابنها — للفنان رينولدز — مجموعة دالاس بلندن



مريم المجدلية — للفنان روتاري — متحف درسدا

عزيز طال شوقها إليه وترقبها إياه . ولم تشكره ولكن أرسلت من عينيها بريق شعاع فيه معنى جديد . لاح لى أنها انفصلت عن كل ما حولها ومن حولها. وعاشت بكيانها فى نظراتها. لاح لى أنها لم تعد ترى صاحبها الذى يرافقها ولا عشرات الناس المنبثين هنا وهناك ، بعضهم يستحم ، وبعضهم يتهيأ للاستحمام ، وبعضهم الثالث يرقب هؤلاء وهؤلاء .

* * *

وكان الرجل فى ملابس الاستحمام على وشك أن يغمر جسده بالماء البارد فى هذا الحر اللافح . فلما قدمت المرأة نسى الحر والبرد والماء وملابس الاستحمام وكان عليه أن يشعل لها سيجارتها فأوقد عوداً من الكبريت، وأدنت وجهها منه ، وأدنى يديه من سيجارتها ، ولاح أن أنفاس المرأة أضحت أكثر توهجاً من النار التى أدناها الرجل منها ، وكاد عود الكبريت يحرق يديه، والسيجارة لم تشتعل . . أكان الخطأ منه أم كان منها .. أتراه ليس بارعاً فى إشعال السيجارة لامرأة فى ملابس الحداد أم ترى المرأة ليست بارعة فى تلقى النار من يد رجل وهى فى ملابس الحداد . . أكان خطأ أم كان قصداً ؟ . . أكانت السيجارة هى التى استعصت على عود الكبريت المشتعل ،أم كانت المرأة هى التى أرادت لسيجارتها ألا تشتعل حتى يظل لفح النار قريباً منها وكأنه أنفاس قلب وعقل وكيان . هل هى ذكريات ماض ذهب وتريد أن يعود أم أحلام مستقبل ترجو أن يجىء ؟ .

ولم ألاحظ ما إذا كانت السيجارة قد اشتعلت أم لم تشتعل ، ولكننى رأيت الرجل يشعل عوداً ثانياً .

وظيفة القلب

استمعت إلى صديق يروى حكاية أنصت إليها بكل جوارحي . قال :

إن القصة بسيطة يمكن إجمالها فى عبارات قليلة ، ولكننى مع ذلك أرجوكم أن تتأملوها : فتاة فى ريعان الشباب ، تزوجت كما يتزوج بنات العائلات المحافظة . سألوها رأيها بعد أن أختاروا لها شريك حياتها ، وكان قلبها خالياً فنظرت إلى خاطبها نظرة عقل لا أثر للقلب فيها ، وأعلنت قبولها ، فالشاب من أسرة غنية متعلم على خلق حسن وسيرة طيبة . وقد رأته فراقها منظره ، وزفت إليه .

ومرت فترة الزواج الأولى فى سحر الجديد الذى يجذب القلب ويبهره ، ثم استقرت بها الحياة فإذا بها تشعر بفراغ قاتل . إنها لا تكره زوجها ولكنها لا تحبه . ليس فى قلبها ما يرجه ويملؤه ، وليس فى خاطرها ما يشع فى عينيها ذلك البريق العذب المضىء ولا ما يرسل إليها الدمع لوعة وشكا .

وعنيت ببيتها وحاولت أن تخلق منه شيئاً يشغلها ، ولكن البيت قد يشغل الحواس . . أما القلب والشعور والهوى والضنى والعذاب فلا سبيل إليها بغير حب يتسلل إلى القلب . وقد صانته جهد ما استطاعت . أقفلته على فراغه وقالت ، إنه نصيب ، وهناك كثيرات يعشن من غير حب .

عالجت أن تحب زوجها ولكنها لم تفلح . عالجت أن تتركه ولكنها لم تفلح فلم تجد سبباً مقبولاً للترك . كان الرجل مهذباً رقيقاً مدركاً لبواعث

النفس الإنسانية وانفعالاتها . وقد أحس أن زوجته لا تحبه ولكنها لا تكرهه . وأعتقد أن العشرة قد تخلق حبا أدوم وأثبت. ومرت الأيام وأحس أن أمله لم يتحقق . وكان يحبها فترك للزمن فترة أخرى وقال : عله يعالج هذا القلب العصى .

والتقت الفتاة برجل من أقرباء زوجها وكان أول لقاء . واستولى عليها العجب إذ أحست بشعور جديد لم تألفه . كان نغم صوته فى أذنيها أحلى نغم . وأطالت النظر إلى عينيه ثم تنبهت إلى ما هى مندفعة إليه فانصرفت عنه . ولما عادت إلى بيتها لم تستطع أن تذود التفكير فيه عن خاطرها وقلبها ، وتساءلت : ماذا دهانى ؟

وقررت فى نفسها أمراً . قررت ألا تراه . ولكن القرار شىء والتنفيذ شىء آخر . فما أن أتيحت أول فرصة لرؤيته حتى ذهبت مع زوجها لزيارته . . وتأكد لديها ما كانت فى شك منه . أحست أن قلبها ينبض ويديها ترتجفان ونظراتها ترتبك وألفاظها تتلعثم . . ولم تتمالك أن ضغطت على يده وهى تودعه للانصراف ، وأدهشها أيضاً أنه ضغط على يدها .

وراحت ليلتها فى أحلام . انهارت قلعة المقاومة فى سرعة . سلمت دون نضال . وتكرر اللقاء وتكرر الحديث . وجاءت اللحظة الحاسمة فى تاريخ كل قلب وتاريخ كل شعور . انفرد أحدهما بالآخر قال : يبدو على عينيك أنك لم تنامى نوماً كافياً . .

قالت : بل لم أنم . .

قال : كنت مسهدة ؟ .

قالت : كنت أفكر . .

قال : تفكرين ؟ . . كل شيء لديك منعم مرفه . . جمال وشباب ومال .

قالت : وهل المال والشباب والجمال كل شيء ؟

قال : ماذا ينقصك . . إن في عينيك سحراً يذيب الرجال . .

واغضت في حياء، وأوشكت أن تطبق أجفانها كأنها تحلم ثم قالت: إنك لا تعلم .

قال : بل أعلم . . كنت أفكر أنا أيضاً فيما كنت تفكرين فيه . .

وانطلق وجهها في بشر رقيق ساحر وانبعثت من عينيهما لمحة فيها تمن ورجاء وقالت ملهوفة : صحيح ؟ . .

ولم يجب بل أخذ يدها في يده وضغطها . ومرت عليها لحظة جمعت فيها الدنيا أحلى ما في الدنيا .

* * *

وعادت وكأنها خلقت من جديد . النور له معنى ، الأغاريد لها معنى الموسيقى لها معنى ، الحياة أصبحت ذات معان لم تكن تعرفها أو تعهدها.

ومرت الأيام . وأخذت تفيق من الحلم على الحقيقة المروعة . ما من شيء يظل خفيا مكتوماً . أحست بالهمس يتناقله العارفون عن هواها . وارتاعت . إنها من بيت محافظ ، ولا تزال أمينة لزوجها لم تحنث بعهده، ولكن شعورها، أليس ملكاً لها . لقد اشترى المجتمع جسدها فهل انسحب عقد الشراء على شعورها ؟ إن خيالها ملك لها . . يا رب هل خلقتنا أحراراً أم عبيداً ؟

وأحست بالسهام تصوب إليها من كل عين . ربما كانت مخطئة وربما كان وهماً ؟ وربما لا يعرف أحد عن شعورها شيئاً ؟ ولكن ماذا تصنع ؟ إن إحساسها لا يكذب . . إنها تكاد تفسر كل حركة وكل نظرة وكل كلمة كأنها سخرية منها . . يا لهذا المجتمع الظالم ؟

وأفضت بمخاوفها إلى صديقة لها فقالت : لا بد لك من النسيان . إنه العلاج الوحيد . . .

أجابت الفتاة : إننى أخاف النسيان . فى استطاعتى أن أنساه . ولكننى أجفل من مجرد التفكير فى هذا النسيان . إن معناه فراغ قلبى مرة أخرى ، ولا يمكن أن أعيش فارغة . سأنتقل من حب إلى حب ، لماذا خلقت قلوبنا ؟ أتستطعين الجواب ؟

قالت : والمجتمع أليس له عندك حساب ؟

أجابت : إن حسابه فى جسدى وقد استغنيت عنه لهذا المجتمع . تركته له يبيع فيه ويشترى على هواه . صانه عليه أبى إلى أن كبرت ، واستولى عليه زوجى بعد أن تزوجت ، ماذا تريدوننى أن أصنع ؟

قالت : لا وسيلة لك إلا النسيان . لا تقابليه . لا تتحدثى إليه . بعد أيام ، بعد شهور ، بعد سنة أو أكثر ستنسينه كأنه لم يكن .

أجابت : إن مشكلتى ليست فى النسيان . إن مشكلتى الحقيقية هى أننى لا أريد أن أنسى . أريد أن أعيش ، أن أتنفس ، أن أحزن وأفرح ، أن أرتاب وأستيقن ، أن ابتسم وأبكى . . أن أصرخ وأهدأ . . أريد أن يؤدى قلبى وظيفته .

* * *

وسكت الصديق . وكنا جميعاً فى صمت عميق . استهوتنا القصة لا بوقائعها ولكن بالأسلوب الذى اختار الصديق أن يصوغها فيه . وبعد لحظة قال : والآن إنى أسألكم أكانت هذه الفتاة على صواب فى كلامها ؟ هل ينبغى أن تترك القلب يؤدى وظيفته على هواه أم لا بد أن تتدخل فى هذه الوظيفة ؟ المعدة مثلاً لا تأكل فى كل الأحوال ما تريده . أحياناً نمنعها من شىء ونبيح لها غيره . اللسان لا يتكلم على هواه . نحن نفرض عليه السكوت أحياناً . اليد قد تميل إلى الضرب والاعتداء ، ولكننا لا نقرها عليهما . العقل أيضاً لا ندعه يفكر كما يشاء ، أحياناً يتدخل المجتمع لكى يقول له : هذا التفكير حلال وهذا التفكير حرام .

ولم يجب أحد منا . سكتنا سكوتاً تاما . كان السؤال محيراً . ولكن السكوت لم يطل ، فقد انطلقنا فى اختلاف مر . بعضنا قال إن القلب يجب أن ينطلق من غير قيد ، فالقلب جوهر الحياة . قد يعيش الإنسان من غير يد ومن غير لسان ومن غير عين ، فيعوضه القلب عنها جميعاً . ثم إن القلب المنطلق هو أجمل ما فى الحياة ، هو الفن ، هو الأدب ، هو الذى أقام هذه الدنيا وملأها بما هى ممتلئة به من بهجة وحب ، من دموع وأحزان ، من مثل رائعة فى التضحية والوفاء ، وأعمال خسيسة فى الغدر والبغضاء . كل قيد عليه يغض من جمال الحياة وما فيها من تناقض وإنسجام . . من خير وشر .

وقال آخرون بل إن القلب المنطلق مدمر . العقل يجب أن يكون

صاحب السلطان .

وسأل واحد : أى عقل تعنون ؟ عقل الفرد أم عقل الجماعة ؟

وبقى السؤال بغير جواب حاسم . . كما بقى السؤال الأصلى أيضاً بغير جواب حاسم وسيظلان كذلك ، لأن الحسم فيهما يفقد الحياة عنصراً من عناصر بقائها ، وهو الصراع من أجل الأسمى والأعظم .

الديدبان الساهر

سألتنى : هل أفكارها وخيالاتها ملك لها . وهل إذا أثمت فيها تكون قد ارتكبت خطأ ؟

وقد حيرنى هذا السؤال كما لم يحيرنى سؤال آخر . إن الإثم يكون بالعمل ، والخيال ضرب من التمنى أو التمثيل لما يحب الإنسان أن يكون ، فإذا لم يخرج عن نطاق الخيال إلى التنفيذ لم يبلغ مرحلة العمل . والقوانين الوضعية ذاتها لا تعاقب على النية والتفكير . فإذا فكرت أن أحتال على مالك عمارة واستولى عليها ، ثم لم يخرج هذا التفكير إلى أى مجال عملى ، لم أصبح مستحقا للعقاب طبقاً للقانون، ولا للعقاب الأدبى طبقاً لتقاليد الجماعة . ولو فكرت فى أن أتخاص من خصم بقتله أو ضربه أو إحداث عاهة جسمية فيه، أو تمنيت لو قتل أو فشل أو أصيب بكارثة ثم لم أتجاوز مرحلة التفكير والتمنى إلى أية مرحلة عملية ، فأنا أيضا غير مستحق لعقاب من القانون أو تحقير من الجماعة،ما دامت هذه الأفكار حبيسة لم تعلن .

فهل الأمر كذلك فيما يتعلق بمستويات السلوك والأخلاق ؟

يصعب أن يضع الإنسان ، الذى يعترف بالضعف الإنسانى ، قاعدة ثابتة لا سبيل إلى التسامح فيها ، كما أن التسامح نفسه قد يغرى بنقل التفكير والخيال إلى مجال العمل .

ومجرد التفكير والخيال لا أثر له فى الخروج الظاهر على مقتضيات الخلق والسلوك الحسن ، فهو عمل خفى لا يعرفه أحد ولا يحسه أحد . فالسؤال إذن مرجعه رغبة الإنسان بينه وبين نفسه أن يتحرر أيضاً من الخيال الآثم والتفكير الذى يحس أنه مما لا يليق به ، فهو ليس إلا انشدانا للكمال ، ورغبة فى طهارة مطلقة فى الجسد والعقل والخيال .

وفرق بين الشعور والسلوك . الشعور عمل لا إرادى محض . فالحب والبغض كلاهما ينبع من القلب ، والقلب ينبض من غير إرادة ، يهوى ويصد لأسباب لم يدركها أحد حتى الآن . وما أحسب أن فى الاستطاعة إدراكها يوماً من الأيام . وأغلب الظن أنها ستظل سرا محجباً لا سبيل إلى كشفه . ومن الخير أن تظل ، لأنها تنثر على الحياة أجمل ما فيها وأقوى ما فيها من نوازع ونزعات .

فإذا سلمنا أن الشعور له هذه الخاصية ، أصبحت المطالبة بالقضاء عليه مطالبة غير ممكنة ، فكيف أقتل بإرادتى شيئاً صدر عن غير إرادتى . كل ما أستطيعه هو أن أحصره فى نطاقه ، فلا يتجاوز منطقة الشعور إلى منطقة العمل والتنفيذ . قد يكون من واجبى حتى أتخلص منه ومما يمكن أن يؤدى إليه ، أن أبتعد عن كل ما يثيره ، وأن أجبر نفسى بوسائل عديدة على الكف عن الاسترسال فيه .

ولكن هناك ناحية أخرى ، لا يستطيع إنسان مدرك للطبيعة الإنسانية أن يتجاهلها ، هى أن هذه المحاولات جميعاً تؤثر فى الأعصاب وتتلفها وقد تجنى عليها جناية لا يمكن إصلاحها . والخيال وسيلة للتخفيف من

حدة الكبت . وقد يجد الفقير المحروم فى خيالات الغنى والثروة والتمتع ما يريحه بعض الشىء ، وقد يجد المحروم من الحب والعطف فى خيالات الحب والعطف ما يخفف عنه حدة ما يلقى من حرمان .

على أن الاسترسال فى الخيالات ضار أيضاً ، لأنه قد يفصل الإنسان عن الواقع وهنا تكون المصيبة التى قد تذهب بتوازن العقل .

وإذا كان الخيال الآثم قضية بين الإنسان وبين نفسه ، فإن السلوك الآثم قضية يدخل فيها طرف ثالث هو المجتمع ومستويات الأخلاق المتعارف عليها والسلوك الذى تراه الجماعة أمثل وأفضل .

وإذا كان الشعور ، وهو مصدر الخيال عملاً لا إراديا ، فإن السلوك عمل تدخل فيه الإرادة حتما . وهو يتشكل فى عقل الإنسان بأسباب وعوامل كثيرة ، منها مقدار احترامه لتقاليد الجماعة وإيمانه بما فيها من حق أو باطل ، ومقدار حرصه على أن يحظى برضائها ويسير طبقاً للدائرة التى وضعتها وحددتها ، والناس فى هذا مختلفون اختلافاً كبيراً . .

وأساليب السلوك والتقاليد ومستويات الأخلاق ذاتها عرضة لتغيير مستمر لأنها ليست قوانين طبيعية ، ولكنها نتاج عوامل عديدة متداخلة ، ترجع إلى التاريخ والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدين والتعليم والمناخ وطبيعة الكفاح المطلوب للحصول على الرزق ، وترجع أيضاً إلى الوراثة والصفات الغالبة فى شعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات .

* * *

أتراني وصلت إلى جواب أطمئن إليه فى هذا السؤال ؟ أشعر أنى لم

أصل ، وما أحسبنى مستطيعاً أن أفعل . كل ما حدث أن السؤال أثار جملة خواطر سجلتها بما لها وما عليها . وإن الإنسان ليأثم بعينه أحياناً ، ويأثم بسمعه وذوقه وقلبه وخياله وتفكيره . . . فهل فى استطاعة أحد أن يقول إنه لم يفعل هذا الإثم ؟

حسبه ، كى يكون إنساناً ، أن يرد نفسه إلى الخير والطهر ، وأن يستيقظ فيه الديدبان الساهر ، كلما أحس أن عينه قد طرفها النوم الرقيق أو شملها النوم العميق .

ما هو هذا الديدبان ؟ قد يكون الضمير أو العقل أو الدين أو المجتمع أو الخوف وقد تكون كلها مجتمعة .

وعلام يسهر ؟ على القلب ، أجمل ما فى الإنسان وأتعس ما فيه .

ذنب المرأة

فتاة فى ريعان الشباب . تزوجت وطلقت . بنت الآمال على بيت مستقر وزوج كريم قوى يسعدها بكرم خلقه وقوة حنانه . ولكنه كان طفلا فى عقله وتفكيره . لم تنضج رجولته وإن نضجت سخافاته . بدا لها أن عقليتها أكثر نضجاً وشخصيتها أكثر استقراراً . كتمت حزنها فى صدرها واحتارت فى نفسها هل هى الرجل أو المرأة . . كانت ترجو أن تشعر بالضعف الجميل فى ظل الرجولة القوية فأحست بالأنوثة القوية فى ظل رجولة باهتة . كانت أمينة وظلت على أمانتها لجسدها وقلبها وهنائها الذى دمرته أحلام كاذبة .

قال لها زوجها : إننى أسافر وأتركك .

قالت : بل أرافقك ؟

قال : لا أستطيع : إن عملى يستغرق وقتى . . إبقى أنت هنا .

قالت : إن النظرة الآثمة قد تفسد طهرى .

قال : وماذا لو كانت ؟ هذه أفكار قديمة . اصنعى ما يروق لك . . أنا مسامح .

وقضت ليلتها باكية ، وقالت لأبيها كيف تريدنى أن أبقى ؟ لابد أن أنفصل عن الرجل الذى يقول هذا . إنسان لا يمكن أن أعيش معه .

وطلقت . ومع الطلاق بكت . لا لأنها كانت تحبه . فقد كانت

وهى معه تحجب عينيها بيديها حتى لا تراه . ولكنها بكت لأن أملاً داعب خيالها يوماً وهى عذراء قد تحطم . . وعليها الآن أن تجابه العالم لتبدأ الحياة من جديد . . الحياة التى اضطربت موازينها فى عقلها وقلبها وخيالها .

ومرضت . وفى المستشفى عرفت شاباً تحبب إليها . والتقت به مرة ومرة فى محال عامة ، قال : إن المحال العامة ليست مكاناً مناسباً للقاء ، تعالى إلى بيتى قالت : كلا . . . إذا أردت أن تكون علاقتى معك شريفة ، فاذهب إلى أهلى واخطبنى .

قال : ولكن ظروفى تحول دون ذلك ، مرتبى صغير .

قالت : أنا راضية به . .

ثم جاءها ذات يوم واقترح عليها أن يتزوجها سراً . قالت له : إذا كنت قد لجأت إلى هذا لأننى رفضت أن أطاوعك . فاعلم أنى أرفض الزواج على هذه الصورة . ما معناها ؟ هل نحن نأتى عملاً غير مشروع ؟

وقالت الفتاة لى وهى تختم حديثها وفى عينها بريق دموع محبوسة : وهكذا نعيش . ألسنا مظلومات ؟

وانصرفت . وتأملت كلمتها وقصتها . هل هى كلمتها وقصتها وحدها ، أم كلمة وقصة تردد وتتكرر كل يوم . إذا أثمت الفتاة فهى التى تتحمل الإثم . إذا فشل الزواج فهى التى تتحمل الفشل . إذا أرادت أن يكون لمشاعرها وإحساسها وحبها وقلبها وزن ، قالوا : فاجرة خرجت على التقاليد . وإذا حبست نفسها فى بيتها وشربت كأسها وحدها ، ضاق بها من حولها . .

ضاق زوجها وأهلها وجيرانها وأصدقاؤها ، وإذا كشفت نفسها قالوا : متمردة .

الرجل يأثم ويذنب ويعربد ويهمل بيته وأولاده وزوجه ثم لا يجد عقاباً ولا رادعاً . يتزوج ويطلق . ويعيش وحده أو مع الناس . يسهر أو لا يسهر . يحب أو يكره . يطالب بحقه فى المتاع الجسدى والعقلى والروحى ، وإذا فكرت الفتاة فى أنها إنسان لها مثل هذه الحقوق ، طاردها المجتمع ، وطاردها الناس . وانصرفت عنها الصاحبات والصديقات وكل منهن فى قرارة نفسها مثلها ، تشكو شكواها ولا تستطيع إلا النجوى مع آهاتها وأحزانها .

هل هذه هى المساواة التى يقال إن المرأة حصلت عليها . ساووا بينها وبين الرجل فى القلب والشعور والإحساس وحق الحياة والمتاع ، واجعلوا منها بعد ذلك أمة فى السياسة والوظائف ، أمنعوها من كل شىء وامنحوها هذه الحقوق .. أما إذا أعطيتموها كل شىء ، وحرمتموها من هذه الحقوق فستظل أمة حبيسة بين أحزانها المكتومة وقلبها الذى لا يستطيع الإفضاء ، وجسدها الذى يستعبده الرجل .

عبء المال

شهدت فيلم « الباحثة عن الحب » . . امرأة ورثت الملايين وأذلت الرجال باسم المال . ولكنها كانت تبحث عن رجل يذلها ، كانت تحس بعطش فى قلبها ، لم تستطع الملايين أن ترويه . . وما هى الملايين !؟ لتذهب إلى البحر. إن كل إنسان حولها، ربما كان يجاملها من أجلها ، ربما كان يسكب عواطفه بين يديها وبريق المال يخطف بصره ، فلا تعرف هل يمجدها ويعبدها أم يمجد الملايين ويعبدها .

واستبد بها الوهم . أصبح المال عبئاً ثقيلاً ، هو الذى يتمناه الكثيرون وهم لا يعرفون . كانت تريد رجلاً يأمرها ويطويها بين ذراعيه فتنسى أنها صاحبة الملايين ولا تذكر إلا أنها امرأة بين يدى رجل ، يحبها لنفسها وروحها ، وليس لما تحمل فوق ظهرها من أسلاك الذهب .

وكانت مترددة .. أى رجل تختار لكى يكون شريك حياتها . وقال لها الطبيب النفسانى : إنك تحبين رجلاً معيناً . اذهبي إليه وإذا طلب منك الزواج فوافقى بسرعة ، لا ترددى .

وقبلت النصيحة ، وقررت فى نفسها أن تقبل دون تردد .

وفى الوقت نفسه كان الرجل يستشير طبيبة نفسانية فقالت له: لا تكن عنيفاً مع صديقتك ، لا تتبع معها طريقتك فى الأمر والإملاء .

وقبل الرجل النصيحة وقرر فى نفسه أن يكون رقيقاً ويكف عن طريقة

إصدار الأوامر . والتقى الحبيبان . المرأة كانت تنتظر الأمر لتطيع . والرجل كان قد قرر ألا يأمر .

واشتركت فى حفلة راقصة ولف أحد الراقصين ذراعيه حولها . وسألته من أين أنت ؟ قال من البرازيل . قالت : وهل تعاملون المرأة هناك هكذا ؟ قال : نعم ! إن هواء البرازيل يجعل الرجل يخطف المرأة ، إذا أراد شيئاً أقدم عليه دون تردد .

وحزمت حقائبها وأخذت أول طائرة إلى البرازيل ، وتبعها صديقها الجديد .

وحينما استنشقت هواء أمريكا اللاتينية أحست أنها تتجدد ، وأن قلبها يتفتح . ودعاها رجلها إلى غرفته وقال ستتناول الغداء سوياً وفى غرفتى دون أن يكون معنا أحد .

وفرحت ، وقالت : إن هواء البرازيل بدأ يفعل فعله . سأقبل الزواج منه دون تردد

وذهبت إليه كأنها تطير ، جناحاها حب ورغبة وهواء البرازيل .

وألفت رجلها راقداً فى فراشه ، رجله مكسورة . واعتذر لها من اضطراره إلى دعوتها فى غرفته الخاصة .

وأصيبت المرأة بخيبة أمل . وخرجت صارخة تسأل هواء البرازيل سحره . وانطلقت تحدث كل إنسان ، وتبتسم لكل شىء . . ورأت سباق الخيل وأخذت تسير بعد السباق فى اسطبل الخيل تغنى وتنظر وتتسكع . وما هى إلا لحظة حتى أمسكت بها ذراعان ، وطواها رجل فى ركن من

الإسطبل . ولفها بين أحضانه . ودون كلمة وضع شفتيه على شفتيها فى قبلة مغتصبة،ولكن فيها سحر المفاجأة وصدق العزم وقوة الاستيلاء . وألفت نفسها فى سحر لم تعهده وآمنت بالبرازيل وهوائها .

وتركته وهى شبه منومة . لا تردد هنا . . . يا للبرازيل العجيبة . هكذا يحبون ويقبلون ويفهمون المرأة . . . يا لخيبة رجلى الرقيق الأنيق الذى يأبى إلا أن يترك لى وقتاً للتفكير ؟

وأحبت ريكاردو البرازيلى . وعرضت عليه الزواج فقبل . وسألته : هل إذا كنت غنية تكرهنى ؛ فقال : لها ولماذا ؟

قالت : ألا تهرب منى ؟ قال : كلا بل أحبك أكثر . . قالت : إذن أنت تحب المال .

وهربت إلى رجلها الأول وقالت : إننى أخطأت ، معك حق . إن المال عبء؛ قال : أنت لى . إن عندك ٣٧ مليون دولار ،وأنا عندى ٤٨ مليون دولار . . تصورى ماذا يكون حينما أضم ملايينى إلى ملايينك لا بد أن نسيطر على الأسواق كلها ... تصورى هذا الاندماج .

وفرت منه . قالت : من أجل ذلك تريد أن تتزوجنى .

وانفردت بنفسها ودعت سكرتيرتها وقالت : أعدى كل شىء . إننى مقدمة على قرار خطير . سأهب أملاكى وأموالى كلها إلى أى إنسان، سأتنازل عنها للشيطان . . . إنها سبب شقائى ، إنها تحرمنى من الحب .

وذهبت إلى حفلة عرسها من البرازيلى وقالت له : لدى قرار سيسعدك، قال : وما هو ؟

وأسرت إليه بقرارها؛ فقال لها : إن الموقف تغير . لقد أحببتك ولا أعرف أنك صاحبة ملايين ، ثم عرفت ، والآن تتنازلين عن ملايينك . اتركى لى فرصة للتفكير .

وعادت إلى سكرتيرتها تقول لها : اجعلى التنازل لريكاردو البرازيلى .

وبين أحضانه قالت له : لقد ألقيت عن كاهلى عبء المال، وجعلته على كتفيك . إنما أريد الحب لا المال .

* * *

هل صحيح أن المرأة تريد الحب ولا تريد المال ، أم أنها إذا كان المال لديها طلبت الحب ، وإذا أضحى الحب بين يديها طلبت المال !

الحياة أمل

تلقيت هذه الرسالة وهى من فتاة لم تتزوج ، بلغت الثالثة والأربعين من عمرها ، مفرغة فى عبارة جميلة معبرة ، بدأتها بهذه العبارات « قل يا ربك أين الطريق إلى الله ، بل كيف أصل إليه ، كيف أدعوه حتى يستجيب لرجاء طال فأمتد إلى عشرين عاماً مضت ، فأنا لم أكف لحظة عن خطابه ... انظر إليه فى سمائه وتتمتم شفتاى بما لم يسمعه سواه أبداً . أتطلع إليه وأسمع قلبى وهو يتوسل إليه ، وتعلو ضراعاته حتى يخيل إلى بعد فترة طالت أو قصرت إنه لم يعد يقوى على الاحتمال لفرط ما أتوسل » .

ثم تقول « وهكذا تمر بى الأيام راضية هانئة أنام على أمل وأصحو على رجاء ولكن لحظات شقائى تأتى حين أحس بشىء من الشك يتسرب إلى نفسى فيزعزع يقينى ويوهن صبرى ، وأعود فأتساءل وأنا أكاد أضيق لكثرة ما يتوارد على خاطرى من أسئلة كلها فى حاجة إلى ما يشفى غليلها ويلقى عليها بلسم الراحة والطمأنينة .. أحقاً يا رب أنت راض عنى ؟ هل يصل إليك نداء هذا القلب الذى يقف ببابك منذ خلقته . . إذن يا ربى لم َ لم تستجب له وتحقق له ما يرى فيه حياته وبقاءه ؟ وأظل أسأل وأسأل ويدفعنى إلى هذا طمعى فى كرمه واطمئنانى إلى عدله ، ولكننى لا أكاد أصل إلى نهاية الطريق ، حتى أحس بنفسى تذوب بين جوانبى ضعفاً وأشعر بقلبى ينوء تحت ثقل ذنوبه . أسمع صوته خافتاً لا أكاد أتبينه وهو

يبكى ويئن . . كيف جرؤت ؟ كيف تطاولت ؟ ثم يعود إلى صوابه ، فلا يرى إلا طريق التوبة يكفر بها عما داخله من شك وزيغ » .

وبعد هذه المقدمة تدخل فى الموضوع فتقول « ولأبدأ أولاً برأيى فى الحب بين الرجل والمرأة ، فأنا أراه قدراً ليس للإنسان يد فيه فهل توافقنى على هذا ؟

« ثم إنى أومن بأن الزواج قدر أيضاً يهبه الله لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء ، لا يشترط فيمن ينال هذا الفضل أو يحرم منه مواصفات معينة وإنما هو الله الذى يعرف سر العطاء وسر الحرمان ، فهل ترى هذا صحيحاً ؟

« والزواج فى تقديرى نوع من الحب والعطف والتعاون والإيثار ، فإذا لم نجعل من هذا كله أساساً له : أصبح فى نظرى باطلاً كتب عليه أن يولد ميتاً ، فهل ترى هذا الرأى مجانباً للصواب ؟

« وأنا أرى فى الاستقامة والتعفف طريق حياة وضحت معالمها وأضاءت جوانبها — ولو أنه طريق طويل شاق — إلا أنه ينتهى بنا إلى حياة أفضل ، فهل تؤيدنى فى ذلك . ؟

« لكننى أختلف فى هذا كله مع من حولى من أهل وصديقات .. أرى ما لا يرون وأدين بما لا يؤمنون به ، وأنا موضع لومهم على سوء تقديرى للحياة ، ولأننى بجمودى وقلة فهمى للأمور قد أضعت عمرى سدى وفوت على قلبى الشباب والحب .

« جاوزت الأربعين — كما قلت — دون أن أحب ودون أن أتزوج ، أشغل وظيفة محترمة ، وأنا مثقفة ثقافة عالية ، أحب عملى وأتفانى فيه ،

وأنا مع ذلك لا أفتقر – كما يقولون – إلى مواصفات الحب والزواج وهى حسن الخلق والعلم والمال وشىء من الجمال ، ولهذا فأنا متهمة فى نظرهم بأننى أرفض النعمة بعد النعمة ويقصدون بالنعمة الزوج الرجل ، أى رجل وأى زوج . . . ألا يكفى أنه رجل تعيشين فى ظله . . . فإذا قلت إن الحب أساس الزواج ، قالوا إنه يأتى مع الأيام ، وإذا قلت إن الزواج لا بد أن يخلو من الأنانية والطمع ، قالوا ألا تطمعين أنت أيضاً أن يكون رجلك موسراً ؟

« وهم يرون أن على الفتاة أن تسعى أحياناً إلى خاطبة ولم لا ؟ أو تلجأ إلى المجتمعات تعرض عليها بضاعتها لعلها تجد الشارى . . أليست الحياة فرصاً تغتنم ؟ ولكننى أرى فى الخاطبة كارثة ، وأرى فى الاختلاط العادى الرزين الذى يسوده الوعى والتفكير السليم شيئاً ترضى عنه النفس ويقبله العقل ،وهم يقولون أنت لا تريدين الاختلاط بالناس حتى تتاح الفرصة لمن يعجب بك أن تذهبا معاً هنا أو هناك لتهيئة جو من التفاهم والود فهل سيسقط عليك الزوج من السماء ؟ وأنا لا أسمح لنفسى أن أمتهنها فمن يريد شريكة تحفظه فى ماله وفى عرضه فعليه أن يلقاها فى وضح النهار . . »

ثم تذكر عينة من « النعمة » التى رفضتها . . والنعمة هنا تعنى من رغبوا فى الزواج منها ، « مثلاً شاب يصغرنى بثمانى سنوات وآخر يكبرنى بما يزيد على عشر تزوج مرتين وأنجب عدداً من الأولاد منهم من تزوج وأنجب ، وثالث أقل منى فى المستوى الأدبى والمادى ، ورابع لا هم له إلا السؤال عن درجتى ومرتبى وموعد العلاوة القادمة . « ثم يتساءلون بعد هذا ،

أليس الزواج من أى من هؤلاء أفضل من حياة بغير زواج ؟

« فإذا كنت لم ألتق بعد بمن أحس أن فى استطاعته أن يملأ حياتى وتطمئن إليه نفسى فأبذلها فى سبيل راحته وسعادته فهل هذا ذنبي ؟

« وإذا كان قلبي لم يخفق بعد بحب رجل فهل هذه جريمتى ؟ وإذا كنت لم أتزوج حتى الآن فهل هذه مأساة تجعلنى أندب حظى وأبكى على شبابى الراحل بقية عمرى ، وهل هى كارثة تستحق ممن حولى الرثاء والعطف . . وأخيراً هل علىّ أن أفقد الأمل الذى عشت له عمرى كله ، مع إيمانى بأن الحياة نفسها أمل ما دمنا نتمتع بها » .

* * *

أما أن الزواج والحب قدر لا بد لنا فيه ، فالمسألة فرع من أصل كبير ، فإذا سلمنا بهذا كان علينا أن نسلم بأن كل شىء فى الدنيا قدر لا يد لنا فيه ، والصحيح أن الزواج والحب وسائر ما فى الدنيا لا بد أن تتداخل فيه إرادتنا بصورة من الصور ، وإلا كنا أدوات لا نسأل عن شىء ولا فضل لنا فى شىء . . ولست أنكر فى ذلك حكم القدر والظروف ولكننى لا أحب أن يتخذ الإنسان هذا الموقف السلبى من الحياة ، فعليه أن يسعى جهد ما يملى عليه تفكيره وتعليمه ومثله والمبادئ التى يدين بها . . ترى هل التلميذ الذى يريد النجاح فى الامتحان، ألا يتذرع لذلك بالسهر والاجتهاد . . ؟ والسعى للحصول على زوج لا عيب فيه بالنسبة للمرأة ، كما أن السعى للحصول على زوجة لا عيب فيها بالنسبة للرجل ، والعيب يجىء فى الوسائل والأساليب وليس فى الهدف . . ولا أنكر

أن الأمر فى هذه المسألة بالنسبة للمرأة أدق وأشق ، وظروف المجتمع هى المسئولة عن هذا ؛ وهو حديث طويل وليس هذا موضعه على كل حال ، أى على كل فتاة تنشد زوجاً أن تتصرف فى حدود الظروف الاجتماعية القائمة . والمجال بالنسبة لها الآن خير ألف مرة مما كان بالنسبة للفتاة فى الأجيال الماضية .

والحب أيضاً قدر من ناحية ، وإرادة من ناحية أخرى . . هو قدر من حيث وقوعه وإرادة من حيث السعى إليه ، فالفتاة أو الشاب لابد لكل منهما من توسيع نطاق نشاطه الاجتماعى ، فحيث يكون النطاق واسعاً ، يكون احتمال العثور على الشخص الذى يخفق له القلب أقرب وأيسر .

أما الخاطبة فلا أوافق عليها ، وكذلك الزواج من غير اقتناع . وهو دون أساس من التعاون والود والإيثار ، خير منه عدم الزواج ، فالإنسان ينشد السعادة والهناء ، وإذا كان شقياً وحده فمن قصر النظر أن يشقى آخر معه .

وأحب أن أقول لك يا سيدتى أن الالتزام بموقفك الكريم خير من الاندفاع فيما تريد صواحبك وأهلك أن تندفعى إليه.والزواج بالنسبة لك، وأنت المثقفة المتعلمة الواعية ، إن لم يكن عن أختيار حر ورضاء كريم ، ينتهى إلى مأساة .

بقى أن الزواج ليس شرطاً ضرورياً للسعادة ، فللسعادة مسالك عديدة ، وهى تنبع من نفس الإنسان ، وهنالك آلاف من النساء لم

يتزوجن ، ومع ذلك شعرن بسعادة لا حد لها ، حينما انصرفن إلى خدمة الغير وإسعاده . إن العطاء هو السعادة والذى يعطى من المحتم أن يأخذ ، وهو لا يأخذ من نوع عطائه حتما ، ولكن عطاءه يرتد إليه راحة وطمأنينة

وإنى لأحس أن هذا كلام لا قيمة له إلا عند من يستطيع أن يروض نفسه على العطاء وليس كل الناس على هذا النهج . . إنهم الأقاون الذين يدركون المعنى العميق للسعادة . وتستطيعين يا سيدتى أن تسألى المتزوجات أو أن تتحرى حالتهن وسيدهشك أن الكثرة الغالبة فيهن ، إن لم يكن كلهن ، لا يشعرن بالسعادة الحقيقية . . إن المظاهر تخدع والسعادة شىء أصيل وجوهر دقيق جداً لا دخل له بالمظاهر .

ثم إن الأمل لا ينبغى أن يتلاشى من قلبك أبداً . . إن فرصتك باقية ومستمرة وأكاد أثق إنك ستجدين الرجل المناسب الذى يعوضك عما فات ، وفى طبيعة الحياة التعويض ، والسعادة لا تقاس بالطول ولكن بالعرض ... وقد توقفت عند كلمة عميقة وردت فى رسالتك وهى قولك « إن الحياة ذاتها أمل ما دمنا نتمتع بها » ، فلا تأسى على ما فاتك ، فأنت لا تعرفين ما يأتى به الغد ، ولك أطيب تمنياتى بالتوفيق والهناء .

تعاسة الانتصار

مدت ذراعيها وتمطت وهى فى فراشها . . الصباح جميل مشرق ، والحياة مملوءة بالبهجة والصفاء ، ولم تنهض . . شعرت أنها فى حاجة إلى مزيد من الاسترخاء ، وطرأ على خاطرها سؤال غريب : هل يمكن أن ينقسم قلبها هذا الانقسام المر الأليم ، فى أحيان تكون قاسية قسوة من غير حدود ، وأحياناً تمتلئ حناناً حتى ليسع حنانها الناس أجمعين . أحياناً تقتل قلبها حتى لتصبح امرأة من غير قلب ومن غير حب ، وأحياناً تندفع فى الحب حتى ليبدو كأنه الحياة .

وما هو الحب ؟ سألت نفسها هذا السؤال واستطردت : هل يمكن أن يوجد ويذهب ، أم أنه ، إذا وجد لن يذهب ، وراجعت حياتها . . أحبت مرة ومرتين وثلاثا . . هل كان حباً ؟ وترددت فى الجواب ، تلهفت فى كل مرة حتى لكأنها كانت تموت لو نزع هذا الحب منها . . ثم فجأة نزعته هى برضائها ، وشعرت بالطمأنينة أن تخلصت منه . . هل هى قاسية ، يرضيها أن تكسر القلوب وتحطم الهناء ؟ . .

ونظرت فى وجهها فى المرآة . . نهضت ووقفت ، واسترخت حيث هى واقفة واهتز كيانها كله ، وازدهت حينما لمحت أن جمالها يكتمل ولا ينقص . . أهداب عينيها تزداد سحراً ، انثناء خطوها إذا خطت فيه لمحات من غزال . . وتبسمت راضية عن نفسها ، ثم غام على وجهها ظل كئيب ،

لماذا إذن لا تحس بالسعادة ؟ أنها لا تجدها فى الحب إذا أحبت ، ولا تجدها فى فراغ القلب إذا أضحت ذات قلب فارغ . . إنها لا تشكو من خيانة الرجال ، ولكنها تشكو من خيانتها هى للرجال . .

وكثيراً ما استمعت إلى صاحباتها وقد كسر الرجال قلوبهن ، فتبتسم لأنها وحدها المنتصرة على الرجال ولكنها اليوم ، فى هذا الصباح المشرق الجميل ، تشعر بتعاسة هذا الانتصار . . تمنت لو أحست ذات مرة بتعاسة الهزيمة مع رجل . . هل هذه التعاسة هى السعادة ؟

وضحكت ساخرة ، هل يمكن أن تكون التعاسة هى السعادة ؟ ثم زمت شفتيها واكتسى وجهها نوعاً من الجد الصارم وقالت تحدث نفسها : ولكن أليست التعاسة هى البديل للسعادة . وهؤلاء الصاحبات لم يشعرن بالتعاسة لضياع الحب إلا لأن الحب كان يمنحهن السعادة الكاملة . .

وهى لا تذكر أنها أحست مرة بمثل هذه التعاسة . . لا بد إذن أنها لم تشعر بالسعادة الكاملة . . هل الحب عندها تلهية؟ هل هو دمية جميلة يستهويها أن تحصل عليها ، فإذا فعلت حطمتها ، لأن هناءها ليس فى الدمية ذاتها ، ولكن فى الحصول عليها ؟ ..

ولكن لماذا إذا شعرت بالحب فنيت فيه فترة ثم نبذته راضية ؟ هل هى تمثل دور الحب أم أنها تحب فعلاً ؟ واحتارت بماذا تجيب ؟

وسكتت لحظة استعادت فيها الرجل الأخير الذى حطمت قلبه ، ثم لم تمسها فى أمره لمحة من إشفاق . . إنها امرأة عجيبة معقدة . . « نعم لا بد إننى معقدة . . ما ذنبه ؟ أراد أن يتزوجنى فرفضت . . عرض على كل

ما أريد فهربت .. هل ضعف الرجال أمامى هو الذى يغريني بالطغيان؟..»

وعند هذا الحد توقفت وتأملت ثم قالت : «الطغيان أسوأ شيء للمرأة» . . إنها لا تحب أن تمارسه ، وإن تاقت إليه . . إنها تريد الرجل الذى يطغى عليها ، وليس الذى تطغى عليه ..تريد الرجل الذى يشعرها بضعفها وخوفها وقلقها .. «إنى امرأة تعسة . ربما كان جمالى هو اللعنة التى حلت بى . . جمالى الصارخ . . كم كرهتهما ، هذا الجمال وهذه الشخصية . تمنيت لو كنت امرأة عادية تنتظر رجلها مشفقة خائفة أن يتحول عنها ، ترتعد إذا لم يمنحها كلمة الحب وتسأل نفسها هل أحب غيرها فتشعر بالتعاسة . . ثم تنتشلها من تعاستها كلمة حب كانت تنتظرها . . أما أنا فما أشقانى . . كلمات الحب والإعجاب تحت قدمى ووراء أذنى أينما سرت وإينما كنت » .

واستدارت وهى واقفة أمام المرآة ، وراعها جمالها ، ولكنها شعرت بحزن كظيم أليم . . وابتعدت عن المرآة ، وأحست أنها تكرهها . . هل هذا الجمال هو الذى أغراها بالطغيان ؟ وماذ تصنع ؟ تمنت أن تتألم وترجو وتستعطف وتشعر بالحسرة والألم والخوف أمام رجل، ولكنها لم تحس بشيء من هذا أبداً .

إنها مدللة ، يدللها جمالها وثروتها ، وعلمها وذكاؤها . . هذه اللعنات التى نزلت على رأسها . . ما أكثر ما تقسو تعاسة الفيض من النعم ، كما تقسو تعاسة الحرمان ؟

واستعبرت باكية . انهمرت دموعها ، وأحست أنها فى ضياع . .

لا شيء تريده ولا تجده . . ليس فى حياتها كفاح ولا خوف ولا هناء . . إن الحياة بالنسبة لها لعبة سهلة ، لعبة لا طعم لها لكثرة ما استذلت أمامها وتدحرجت تحت أقدامها . .

إن التعاسة بديل السعادة ، وهى لم تشعر بالتعاسة ، ولذلك لم تشعر بالسعادة ، إنها لم تنهزم وهذه هى مأساتها . . إنها امرأة فى حاجة إلى الهزيمة فى حاجة إلى أن تستسلم لرجل يكون إلهاً وسيداً . . لا تريد أن تقف وحدها ، حتى ولو استطاعت ، تريد أن تستند بذراعها على كتف رجل تريد أن تشعر بأنها فى حاجة إلى هذا السند . . إن هذه الحاجة هى حياتها كامرأة . . كلا ، إنها ليست امرأة ولا تستطيع أن تكون رجلاً .

وانهمرت دموعها ، بينما كانت نسائم رقيقة تهز ستائر النافذة الموشاة بالذهب .

النفور من الرجال

يندر أن تتبلور الأحاديث فى سهراتنا كما كان شأنها فى هذه الليلة وربما كان التحمس للموضوع ، لأنه يمس المرأة والرجل هو الذى أضفى عليه ما أضفى من تركيز وتشويق .

قال صاحبنا ، وهو رجل مجرب ، صلب القلب والعقل : أتصدقون أن هناك امرأة تستغنى عن الحب . . ؟

وانقسمنا إزاء هذا السؤال المفاجئ فريقين قال واحد منا اشتهر بتحمسه واندفاعه : هذا مستحيل . .

وقال ثان ، عرفنا عنه التؤدة والعمق والتحليل : ولماذا المرأة وحدها . . لماذا لا تعمم تساؤلك فتقول المرأة والرجل . ثم ماذا تعنى بالحب . أتعنى به العاطفة والجنس أم العاطفة وحدها . . أم الجنس وحده ؟. .

واعترف صاحب السؤال بأنه لم يتعمق الموضوع على هذه الصورة ، ولكنها حالة سمع بها واستوثق منها ، أحب أن يرويها ، ويدع لنا استخلاص ما تشاء منها .

وأنصتنا إليه ، وبدأ يروى قصته . قال :

– نشأت الفتاة فى كفالة والدين يعزانها ويحبانها حباً جماً . ولم تكن وحدها ، فقد كان لها أخوة وأخوات . ولكنها كانت أدناهم إلى قلب والديها ، ربما لأنها كانت رقيقة عذبة القلب والفؤاد ، وربما لأنها كانت

بارعة الجمال . وعاشت مدللة ، شديدة الحساسية تعشق الموسيقى والغناء تقضى أكثر وقتها فى الحديقة المنوعة الأزهار المحيطة ببيتها ، تشدو بأحلام غامضة ، وتناجى أخيلة تطوف بكل فتاة فى هذه السن .

وخطبها شاب ، فرجف كيانها بشعور لم تعهده . وكانت أسرتها محافظة . خطبت وتزوجت على الطريقة القديمة ، ولكنها أحست بجسدها وقلبها وصدرها وكل جارحة من جوارحها تهتز . . ولم تكن تعرف شيئاً عن علاقة الرجل بالمرأة . لم تكن تدرك منها إلا ما تدركه الغريزة الغضة الجارفة من غير تجربة ولا علم ولا تلقين .

وجاءت تجربتها القاسية ليلة الزفاف .

كانت تغرد قبلها كالعصفور وهو ذاهب إلى العش ، وتحلم كالمهاجر المجهد وهو عائد إلى أرض الوطن ، وتشدو كالمحارب الذى أضنته الغربة وأثخنته جراح الحرب والسنين ، يجرى إلى الأهل والأحباب والصحاب . .

واستقرت فى الغرفة البهيجة التى ملأتها بالأحلام . وسكتت الأغاريد والأهازيج . وانتصف الليل أو كاد يميل ، واختلت بالشاب الذى جعلت إليه ومنه الأحلام . توقعت أن تسمع حديثاً رقيقاً تنتشى منه . . أرهفت كل حاسة فى جسدها وعقلها وفؤادها وقلبها لكى تمتلئ من رحيق الحب . . خيل إليها أن حديثه سيكون شدواً ، وتعبيره همساً ، ونظراته سحراً .

وجلس إلى جوارها ، فأخذ يعبث بجسدها . . أمتعضت . . كانت

تتوقع أن يقول لها ما كانت تهوى أن تسمع . . فإذا به حيوان ، لا تحركه إلا رغبة الحيوان . . . .

حاولت هى أن تتحدث عن الحب وهى العذراء الخجول ، فقال لها وكأنه ينهرها :

ــ كلام فارغ . . ليس فى الدنيا شىء اسمه الحب . بل امرأة ورجل. جسد وجسد . .

أحسست بمهانة واشمئزاز ، واندمج فى كيانها تيار قاس مر . . أهذا هو الشدو والتنغيم والسحر ؟ أهذا هو الحب ؟ أهذه هى الحياة ؟ أهذا هو الزواج . . . ؟

وانفصلت من يومها عن حياة الجنس . أضحت جسداً لا نبض فيه . سكتت ، وماذا تستطيع أن تفعل ؟ ومرت الأيام والليالى والشهور وهى تبكى فى أسى وحسرة ... تسكب دموعاً غزيرة فى صمت ليس أشد مرارة منه ما من أحد تفضى إليه بأساها . ما من صديقة ، ما من أب ، ما من أم يفهم أو ينصت . وماذا تقول ؟ لقد حاولت أن تفعل ، فإذا بصديقتها التى أفضت إليها تضحك منها وتقول : أنت ساذجة . . . ستتغيرين . .

ومرت السنوات ، وهى تمارس حياة زوجية لا روح ولا جسد ولا حب ولا إشراق فيها ، انتهت كامرأة .

وقد حاولت أن تفتح قلبها لأى رجل . عالجت أن تحل هذه العقدة التى أفسدت أحلامها . مات زوجها . وتقدم إليها خطاب عديدون ولكنها نفرت منهم . كان مجرد الحديث عن الزواج يزعجها .

واستطرد صديقنا يروى قصته ، قال : لقد كنت أحد هؤلاء الخطاب واستطعت أن أخلو بها وأسألها سر نفورها ، فسكتت ، ولكن أساها بدا على ملامحها ، وهى قريبتى ، ابنة عمى ، وكنت أحب أن أكون منذ البداية عريسها لولا ظروف حالت دون ذلك .

وبعد جهد روت لى قصتها ، وما إن انتهت منها حتى سقطت دموعها على وجنتيها وقالت : إننى امرأة أعيش بلا حب ولا أمل ، لا قلبى ولا عقلى ولا جسدى أنتفع منه بشىء .

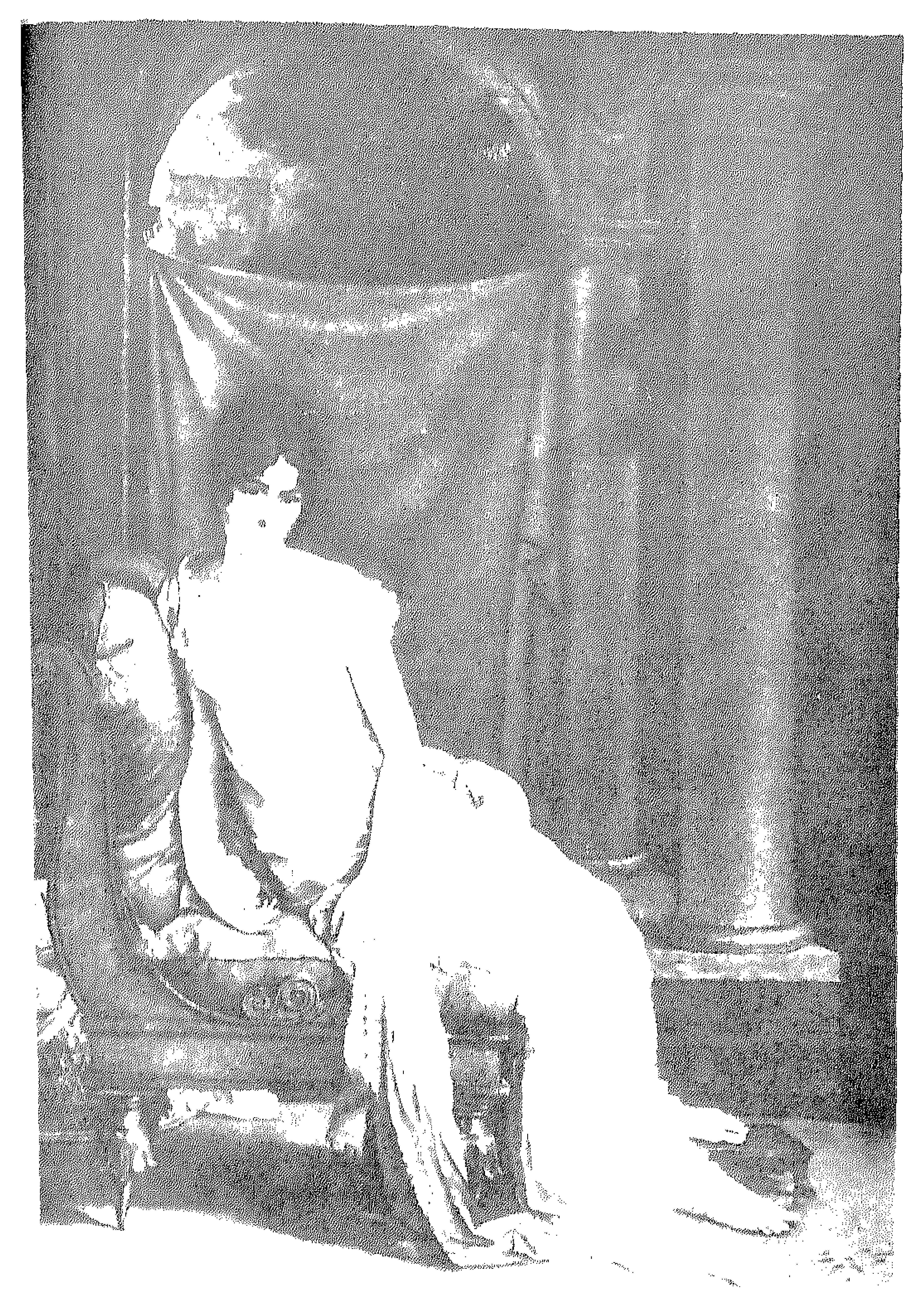
وسكت صديقنا ، واستولى علينا وجوم شديد ، قطعه أحدنا ، هذا المتعمق المتئد . قال : ولكن هذا ليس استغناء عن الحب . إنه عقدة حدثت لها ليلة زفافها جعلتها تنفر من الرجال .

وسأل أحدنا : أليس لها من حل ؟

أجاب : رجل آخر قوى يستطيع أن يعيد ثقتها بالحياة . يعرف كيف يقترب منها ويدخل إلى فؤادها ويهز عواطفها ، ويطرد منهاهذا البرود نحو الرجال ، وحينئذ ترتد إليها أنوثتها أقوى مما فقدتها . ترتد جارفة تنتقم من سخف الرجال .



الجيوكوندا – للفنان دا ڤينشي – متحف اللوڤر



مدام ركاميه للفنان جيرار — متحف اللوفر

حارس الشباب

احتارت أى قلب تحمل . وسألت نفسها وقد اقتربت من نصف العمر هل أحبت يوماً من الأيام ؟ عرفت الكثير من الرجال كان لكل سحره وسره ونجواه، ولكنها لم تشعر أن واحداً ملأ فؤادها كما كانت تحب أن يمتلئ . لم تشعر أن الدنيا اجتمعت لديها فى هوى رجل . وقالت أنها شاذة ، حائرة مترددة تتلظى فى نار من الرغبة والخوف وسعير من الإحساس . إن الأيام تمر دون أن تلتقى بالرجل الذى ينسيها كل رجل ، بهذا الكائن الذى يطويها فى صدره فتفنى فيه ، ولا تذكر من كل ما تضطرب به الحياة شيئاً . تمنت لو نسيت معه أن الأيام تمر ، وأن العمر يتقدم وأن سحر أنوثتها يذوى ، لأن سحر رجولته سيرد عليها كل ما ذهب ، ويمنحها الإحساس بأنها امرأة لا مثيل لها . امرأة لا تشيخ ، ولا تأخذ السنوات منها إلا ما تأخذ العواصف من قطرات البحر ترجها وترجها حتى إذا هدأت عادت كما كانت .

تولاها هذا التحدى العجيب للزمن الذى يتولى كل امرأة بلغت قمة أنوثتها وتهيأت للانحدار . . أرادت أن يكون الوميض الأخير هو الوميض الخالد . وأحست بفراغ قاتل فى قلبها ، كأن كل من مر عليها من الرجال ذهب ولم يترك أثراً . أحست كما لو كانت عذراء تريد أن تعب من بحر الحب لأول مرة .

واستنشقت فى كل نسمة عبير هذا الهوى الذى ننتظره . وذهبت

كالمجنونة مفتوحة الذراعين والقلب والعين والبسمات كلطائر المحلق يريد أن يقع على فريسة دسمة تغنيه طول العمر عن التحليق والسعى .

أكانت تريد الزواج أم الحب أم تريد هما معاً ؟ لم تعرف على التحديد كانت تريد الحياة . الشباب والأنوثة من غير أن يعدو عليهما الزمن . ولم تكن قد تزوجت على كثرة ما واتتها الفرص للزواج . كانت تكره القيود وترى أن الحياة التى يقيدها الموت لاينبغى أن نضع عليها مزيداً من القيود . كانت تؤثر الانطلاق ، تحيا بقلبها وكيانها وذاتها لنفسها ، ولنفسها وحدها. ولم تكن للأمومة حساب عندها ، أو هكذا شعرت .

كانت تقول : الأولاد يأخذون من شبابى وجسمى وصحتى وعافيتى . وقد منحنى الله هذا كله . منحه لى أنا ، فلماذا أعطيه غيرى وبيدى . سأترهل إذا تزوجت وارضعت وربيت وحملت الهموم . لأبق إذن على شاطئ السعادة . إن السعادة والهناء هما فى نفسى وجسمى وشبابى وكيانى وقلبى ، أستطيع أن أحيا فيهما كما أشاء .

وكانت مشكلتها الوحيدة أن الشباب قد يتسرب ، بل إنها انزعجت إذ أحست دبيب هذا التسرب . وقالت إن الحب الغامر الطاغى ، الذى ينسينى حتى مرور الأيام هو العلاج . إنه يحفظ الشباب . إن الجسم يهرم إذا هرم القلب أما القلب الذى ينبض بقوة فهو المعين الذى يحرس الجسد ويحرس الشباب .

وواتاها الحب الذى أرادته . التقت برجل أحست فى نظرات عينيه وميض السيطرة والأمر ، وأحست معه كأنها تفنى فيه . وأشع عليها نور

من السعادة لا حد له . كانت ترجو أن تلتقى برجل تنطوى فيه ، وكأنها جزء منه ، تتحرك بأمره ، وتنطلق بأمره . ليس لها كيان مع غيره . همومها يحملها . بل ما هى الهموم ، إنها لا تعرفها ، لأنها لم تصبح كياناً مستقلاً . لقد أنطوت فى كيان أكبر وحسبت أن شبابها سيطول . . وماذا يمكن أن يؤثر فيه ؟ إنها لا تكاد تحس بمرور الأيام . الساعات والشهور لحظات فى جنة الحب . . لا هموم ولا أحزان ، لا خوف ، ولا قلق ، لا جزع من أجل الأولاد . . أولاد ، يا للسخرية . . إن الحب هو الخلود .

ومرت شهور . . ومرت سنة . . سنتان . الرحيق عذب . الشباب باق. الحب صامد .. الحياة بسمات وضمات وعناق . . جنة ، وماذا تكون الجنة غير هذا ؟

وضاق الرجل بها . امتص رحيق الزهرة حتى لم يبق فيها جديد . وأحست بالهاوية تحت قدميها . . وراحت تبحث عن الحرارة التى عهدتها فى قلبه وجسده وكيانه . فإذا هى آخذة فى البرود . وارتاعت . أهو شبابها أخذ يذوى أم شبابه ؟ أهى حرارتها التى أصابها البرود أم هى حرارته ؟ أخدعها الحب هذه الخدعة الكبرى ، ملأها غروراً ، وأغواها ضلالاً ، رفعها إلى القمة ، وها هو يقذف بها إلى السفح ؟

أكان منها شهوة غرور وكان منه شهوة سيطرة ؟ أتراها ضلت الطريق وهى الآن فى الأفول ؟ . . ونظرت فى المرآة وأطالت النظر والتحديق . . . (هذه الخطوط والتجاعيد. . أين كانت إنى لم أرها إلا الآن . حسبت أنى نسيت مرور الزمن . أعمانى الحب عن حساب السنوات ، ولكن الزمن لم

ينس . كانت السنوات تمر فعلاً ، ولم يمنعها الحب من أن تترك طابعها .

«لا ، بل كان حباً ولم يكن شهوة . كان انطواء منى فيه ولم يكن ذلة ، وكان طياً منه لى ولم يكن سيطرة . لقد شعرت بالحب الذى تمنيته ، ونسيت فعلاً السنوات والأيام . أكنت فى غفوة ؟ أكان حلماً لا حقيقة له . . لا . لا . كان حقيقة وحلماً . . إن أجمل الحقائق تأتينا وكأنها أحلام ، وأجمل الأحلام تطوف بخواطرنا وكأنها حقائق . خطئى الأكبر أنى حسبت الحب يصون الشباب ونسيت عنصر الزمن . لقد ولى شبابى ، وهو لا يزال فى فترة الشباب . يا للحقيقة القاسية المروعة التى أردت تجاهلها . . لقد كنت أنانية . .

«آه . . لو كان لى أولاد ، كنت أرى شبابى يتجدد فيهم ؟ »

أم . . وولد

لكل إنسان منا ثلاث شخصيات ، إحداها الظاهرة للناس ولنسمها الشخصية الاجتماعية ، وفى هذه الشخصية تتصالح جملة عناصر ، السمعة ، المصلحة ، قيود المجتمع وهى شخصية يحكمها خليط من العقل والقلب وقليل أو كثير من الخروج على قواعد الخلق الجامدة .

والشخصية الثانية هى التى يتعامل معها الإنسان وهو فى عزلته بعيداً عن أعين الناس . ولنسمها الشخصية العارية ، لأنها لا تحاذر شيئاً ولا تخاف شيئاً . وفى هذه الشخصية تتصالح النفس على سجيتها مع القلب المنطلق من القيود مع العقل النائم أو شبه النائم ، اليقظ أو شبه اليقظ .

والشخصية الثالثة هى التى يريد الإنسان أن تكون له ، وهى أشبه بالميزان المنصوب يقيس به خطأه إذا أخطأ ، وصوابه إذا أصاب . وهى خليط من المثالية وحاصل القراءة والدرس والتطلع إلى الأفضل والأعلى .

ولنسمها « الشخصية المثالية » والتعبير بالمثالية هنا نسبي محض ، أعنى بالنسبة لصاحبها ، وهى لذلك تختلف من شخص إلى شخص وهى — بهذه المثابة — ليست مثالية مطلقة وإلا لتساوت فى كل الحالات وطبقاً لكل الموازين .

وقد تتقارب هذه الشخصيات وتتباعد ، ولكنها فى كل الأحوال لا تفقد قدراً مشتركاً بينها جميعاً ، هذا القدر المشترك يبدو فى خفاء ملفوف

فى « الشخصية الاجتماعية » وفى صراحة واضحة فى « الشخصية العارية » وفى تيار معاكس أو موات فى الشخصية المثالية .

وكى نقرب المعنى المقصود نقول : لنفرض أن شخصاً ما وهب شجاعة كاملة فى نقد ما يرى من عيب فى الآخرين. هذه الصفة الطيبة قد تجد ما يعوقها عن الظهور تماماً فى « الشخصية الاجتماعية » لما يحكمها من مصلحة أو رغبة فى الظفر بمحبة الناس أو حرص على ترقية أو منصب أو ما إلى ذلك من المطالب العادية للإنسان ، فهى تظهر فى حدود ولا تكشف نفسها تماماً .

أما فى « الشخصية العارية » حيث لا قيود ولا مصالح ولا رغبات فإنها تظهر بوضوحها الكامل . وفى « الشخصية المثالية » كما يصورها صاحبها قد يسمح لها بظهور أكثر وهى هنا تيار موات ، أو لا يسمح لها بظهور على الإطلاق وهى هنا « تيار مضاد » ولكنه لا يستطيع فى حال من الأحوال أن يكبتها تماماً .

هذا هو مثل على « القدر المشترك » الذى قلت أنه لا بد أن يطبع الشخصيات الثلاث بصورة أو أخرى . وهذا القدر المشترك هو الذى يميز إنساناً من إنسان ، ويجعل الناس مختلفين أشتاتاً كل فى سبيل .

ولنضرب مثلاً آخر : لنفرض أن شخصاً ما لا يؤمن بقيود فى العلاقة بين المرأة والرجل ، إنه لا يستطيع فى أكثر الأحيان أن يفضى إفضاء تاماً بهذا سواء بالسلوك أو الرأى فى « شخصيته الاجتماعية » وهو إن فعل اتهم بالانحلال وانصرف عنه المجتمع ، ونحن نفرض هنا إنه إنسان سوى ،

أعنى يهمه رأى المجتمع فيه ، وهنا لا بد له أن يخفى هذا الاتجاه جهد ما يستطيع ، ولكن إخفاءه إياه لن يكون تاماً ، ولا بد أن تشف تصرفاته عنه قليلاً أو كثيراً .

أما فى شخصيته العارية فسيكون واضحاً تماماً ، وفى « شخصيته المثالية » حيث يشترك التطلع وحاصل الدرس والقراءة وتدبر العقل ومقاييس الخلق ، يبدو هذا الاتجاه تياراً معاكساً بعض الشىء ، ولكنه بصورة أو أخرى سيكون طابعاً لهذه الشخصية أيضاً .

وفى كتابى « الصدفة العذراء » قصة عنوانها « ثلاثة السنة » جرت وقائعها فى ديوان من الدواوين ، بين رئيس ومرءوسيه ، وكان كل من أبطالها يتحدث بثلاثة السنة أطلقت من عقالها ، وتشابكت الحوادث ، وأفضى كل منهم برأيه فى أصحابه ، رأيه الحقيقى ، ورأيه المغلف بالمصلحة وقيود المجتمع ، ورأيه المنبعث عن العاطفة وحدها دون العقل .

وانتهت القصة بانتصار اللسان الذى يعبر عن « الشخصية الاجتماعية » لا لأنها هى الأفضل ، ولكن لأنها الوحيدة التى يستطيع الإنسان أن يعيش بها فى المجتمع .

ولكن لماذا كتبت هذا كله ؟ إننى لا كتب فى العادة عفو الخاطر ، فلا بد من شىء يثيرنى للكتابة ويدفعنى إليها دفعاً ، والذى أثارنى هنا رسالة تلقيتها منذ فترة من الوقت ، وظلت فى خاطرى ، أعود إلى قراءتها كلما تهيأت للكتابة . وفى كل مرة كنت أدعها إلى فرصة أخرى ، ربما لأننى

لم أمتص الموضوع تماماً أو ربما لأن خاطرى لم يمتلئ به تماماً، وربما لأننى وجدت ما هو أيسر منه فى التناول .

ومهما يكن من أمر فإن أمر الشاب الذى وقع الرسالة باسم مجهول فلم يزد على قوله « مواطن مجروح » ظل يلح علىّ إلحاحاً إلى أن قررت أن أكتب عنه وعن رسالته .

وأوحت لى الرسالة أنه كما أن لكل منا « شخصيات ثلاثا » فإن لكل منا ثلاثة أنواع من المتاعب والهموم ، نوع نفضى به إلى الناس ونظهر به ، ونوع نخفيه عن الناس جميعاً ويظل سراً بيننا وبين أنفسنا ، ونوع ثالث نرجو لو كان هو كل متاعبنا وسبب همومنا .

والمشابهة قائمة بين ما ذكرته عن « الشخصيات الثلاث » و « أنواع الهموم الثلاثة » أنت لا تظهر أمام المجتمع إلا بالهموم التى يقرها طبقاً لمقاييسه ومثله وما تعارف عليه وهذه أيسر الهموم . ولست أعنى أنها أيسر من حيث الكم والنوع ، ولكنى أعنى أيسر لأنها هموم شريفة تستطيع أن تشرك الآخرين فى حلها ، بل تستطيع أحياناً أن تفخر بوجودها ، فلو كانت زوجك مريضة مثلاً ، وأنت تسعى هنا وهناك لإيجاد دواء لها .. هذا هم ، ولكنه هم شريف تظهر به أمام الناس إنساناً وفياً . ولو كان همك لأن صديقاً لك يواجه أزمة ، فأنت فخور بهذا الهم أيضاً ، والأمثلة كثيرة والقياس ميسور .

هذا النوع من الهموم تستطيع أن تجعله عنصراً من عناصر « الشخصية الاجتماعية » .

وتستطيع أن تلحق «بالشخصية العارية» النوع الثانى من الهموم الذى لا تستطيع أن تفضى به إلى أحد، لأنه يخجلك، ويكلل بالعار حياتك، ويدخل فى هذا النوع الأخطاء الأخلاقية المتعلقة بالسلوك أو النقص الجسمانى فى بعض الحالات، والأمثلة عديدة أيضاً والقياس ميسور.

ومن الهموم ما هو مثالى أشبه بالشخصية المثالية ويمكن أن يلحق بها ويؤلف عنصراً من عناصرها ، فأنت مثلاً فى رسمك لشخصيتك المثالية كما ترجو أن تكون ، تتمنى لو كانت همومك الدفاع عن المظلومين أو استخلاص حق ضائع أو الدفاع عن قضية عامة تجعلك بطلاً من الأبطال .

هذا هو إيحاء الرسالة التى أشرت إليها أما الرسالة فهذه هى :

« ما دمت أكتب إليك بشخصيتى المجهولة ، فلا داعى للمبالغة أو إخفاء الحقائق وهذه صورة عارية واضحة ، أنا شاب فى بداية الحلقة الثالثة من عمرى لى أم سيئة السيرة، ومرد ذلك إلى سببين : أولهما : أن من شابهت أمها فما ظلمت . وثانيهما أنها تزوجت من رجل هو أبى — « مودرن» للغاية سهل لها طريقها المعوج لسذاجته وضعف شخصيته .

« وكذلك لى أخت متزوجة نهجت طريق أمها ، ومن شابهت أمها وجدتها فما ظلمت أيضاً ، والذى ضاعف من ألمى أن زوجها فى مثل شخصية أبى .

وهذه الأم وهذه الأخت لا تبغيان من سوء سلوكهما سوى المزيد من

المال والترف والعيش الرغيد .

« ترى ماذا يكون شعورى تجاه والدتى ؟ إن جميع الأديان والشرائع والأعراف تحض الأبناء على محبة الأم وإكرامها والتضحية فى سبيلها . . ماذا يكون موقفى كابن لمثل هذه الأم ؟ لقد أعيتنى المشكلة حتى البكاء المر، وأخيراً صارحتها ذات يوم وبدون مقدمات فبكت وكان بكاؤها شبه اعتراف وطلب للغفران ، وبكيت معها وفرحت فى الوقت نفسه ، لأننى شعرت بالانتصار فى حل هذه المشكلة ، وعرضت عليها كل ما أملك من نفس وجهد ومال فى سبيل أن تحافظ على سمعتها وشرفها .

« ولكن دموعها كانت دموع التماسيح . . وسرعان ما عادت إلى سيرتها وفهمت من روحها أن ليس فى الأمر أزمة بالنسبة لها ، وإن الإنسان يستطيع أن يستغفر ربه فى آخر أيامه وخلاص ؟ .

« إن أمى تقتلنى قتلاً أدبياً باستمرار فماذا أصنع ؟ . . إنها تستحق — فى رأيى — أكثر من القتل ، فإذا أجهزت عليها ، كنت مجرماً فى نظر القانون والدين والمجتمع ، ثم إننى لا أحب أن أكون ضحية أم لا تستحق أن أكون ضحية لها ، فضلاً عن إننى سوف أسىء إلى سمعة إخوتى فى وظائفهم ومدارسهم ..

« إذا انحرفت الزوجة ، فأمرها يسير ، إذ يمكن للزوج أن يطلقها ، ولكن إذا انحرفت الأم أو الأخت فماذا يستطيع إنسان أن يفعل ؟

« إن نفسى جريحة ، وقد ارتحت قليلاً بعد كتابة هذه السطور لشعورى بأنى ألقيت قليلاً من حملى الثقيل ، وقد كرهت الحياة ونفسى

وأظلمت الدنيا فى عينى وأصبحت أطلب الموت وأنا ما زلت فى بداية حياتى وريعان شبابى » .

هذه هى الرسالة ، ولست أعرف نوع المعونة التى أستطيع أن أمد هذا الشاب بها ، إن من مشكلات الحياة والنفوس ما يبدو وكأنه المرض المزمن الذى لا بد أن يلازم الإنسان طول حياته . وما أحسب أن هذا الشاب هو وحده الذى يعانى مثل هذه المشكلة . وإنى لواثق أن كل من يقرأون قصته سيشعرون بالعطف عليه والرثاء له . . ولكن ما يطلبه ليس العطف والرثاء . . إنه يطلب وسيلة يصحح بها حياته . . ولا فائدة فى أن أقول له أو يقول غيرى . . دع أمك وأختك وشأنهما . . ابتعد عنهما وحاول أن تنسى ، تبرأ منهما وبذلك تصحح وضعك فى المجتمع . . لا فائدة من مثل هذه النصيحة، لأنها نوع من الهروب، والهروب لا يحل المشكلات.

هل لنا أن نناشد هذه الأم عواطف الأمومة والشرف ، ولكن مناشدة ابنها لها لم تثمر وأولى أن تذهب مناشدتنا إياها هباء .

هل يستطيع أحد من علماء النفس أن يحلل الموقف ويلقى عليه بعض الضوء . . لماذا تضل بعض الأمهات على هذه الصورة . . ولماذا يكون الاستهتار الذى كأنه تحد لكل المقاييس والمعايير

وما هو ذنب الابن حتى يحمل أمراً لا يد له فيه، ولماذا يقسو المجتمع عليه . . ألا يكفيه ما هو فية من قسوة تجاوز كل قسوة فى الوجود ؟

منذ سنوات سألتنى فتاة تقدم لخطبتها شاب أحبته ورأت فيه فتى أحلامها وقالت : ولكن أمه . .

قلت: ماذا عن أمه ؟

أجابت : سيئة السيرة . . إن هذا الأمر يزعجنى .

قلت : وهل لعنة الأم تصاحب الابن .

قالت : هكذا يقول أبواى .

سألت : وماذا تقولين أنت ؟

أجابت : لا ذنب له .

قلت لها : وهذا ما أراه . .

ولكننى بعد أن أفضيت إليها بهذا الرأى راجعت نفسى . . . إننا لا نستطيع أن نخرج على مقاييس المجتمع من غير متاعب وتعقيدات ، وقد يكون هذا الخروج ممكناً فى الآراء والاتجاهات ، بل هو واجب فى كثير من الأحيان لأن المجتمعات لا ترسب ، بل هى كائنات حية متطورة متغيرة ، وهى بطبيعتها كذلك وفى كل النواحى ، بما فيها تقاليد الزواج وفهم الخطأ والصواب والفضيلة والرذيلة ، والجريمة والعقاب ، وربما كان إيمانى بهذه الحقيقة هو الذى دفعنى إلى أن أؤيد الرأى الذى فضلته هذه الفتاة ، وربما تصادفها بعض المتاعب ، بل من المؤكد أنها ستصادفها ، ولكن ربما أيضاً نجح هذا الزواج ، وأعطى مثلاً على أن خطايا الأمهات والآباء ليس من المحتم أن تنتقل إلى الأبناء والبنات . .

إننى فى حيرة تامة إزاء مشكلة هذا الشاب . تفكيرى المطلق يقول له : إن أمك شخص آخر غيرك ، لا ذنب لك فيما تدع وتأخذ ، ولكن

تفكيرى المقيد بصرامة المجتمع وجوره فى أحكامه يقول لى إن هذه النصيحة غير مجدية ولا ممكنة . فإذا كنت أنا أو أنت منطلقاً أو نستطيع أن ننطلق من قيود المجتمع ومقاييسه ، فإن غيرك لا يستطيع ، والنصيحة غير الممكنة التنفيذ أشبه بعدم النصيحة على الإطلاق .

وتمنيت أيضاً لو أنصتت هذه الأم وهذه الأخت لعذاب هذا الشاب وهو ابن وأخ .

الوفاء للذكرى

هل يمكن التوفيق بين الإخلاص للزوج والوفاء لحب قديم ؟ وهل يملك الزوج جسد امرأته وفكرها وخيالها وهل إذا شردت بخيالها وتمنياتها تعد أنها خرجت على قواعد الحياة الأمينة ؟ وهل الأمر كذلك بالنسبة للزوج . هل تملك زوجته تفكيره وخياله كما تملك جسده ، وهل إذا شرد بخياله وتمنياته يعد أنه لم يلتزم قواعد الحياة الأمينة ؟

السؤال دقيق والإجابة عليه أشد دقة . وقد سألتنى إياه زوجة ذات ضمير يقظ حىّ . التزمت الوفاء لزوجها التزاماً كاملاً . لم تحنث بقسمها ولم تلوث جسدها بنزوة ولكن قلبها يخفق باستمرار لحب قديم. ماذا تصنع وهى لا تفعل غير أن تستحضر الذكرى . تحب أن تظل وفية لرجل حالت بينها وبينه الظروف وتحس فى هذه الذكرى بعض العزاء وبعض الوفاء . وهى تشعر أنها هى التى حطمت قلبه . وكان يمكن أن يكون زوجها لو استمسكت به ووجدت من نفسها الشجاعة أن تقول رأيها ولكنها استحيت على ما يفعل العذارى ، وخضعت للمصير المكتوب .

وهى لا تحاول أن تتصل به ولا حتى أن تراه . كل ما تسأل عنه وما يؤرقها ويشعرها كأنها غير أمينة لزوجها أن التفكير فيه يلح عليها إلحاحاً . وقد حاولت أن تتلخص منه فلم تفلح . وهى لا تريد أن تترك زوجها وأولادها . وتؤكد أن هذا التفكير لا يصرفها فى قليل أو كثير عن العناية

بيتها والقيام بكل واجباتها الزوجية على صورة تجعل بيتها وزوجها فى سعادة كاملة. مشكلتها بينها وبين نفسها دفينة فى صدرها وقلبها . تجد العزاء فى التفكير ، مجرد التفكير . ولكنها تخشى أن يكون هذا التفكير منطوياً على معنى من معانى الخروج على الإخلاص الواجب بين الزوجين .

هل هناك أتعس من مثل هذه الحالة ؟ وكم حالة مثلها توجد فى فى البيوت ووراء الضحكات والبسمات ؟

من يستطيع أن يقول لها إن أحلامها وخواطرها ملك لها . إنها الحرم الذى لا يستطيع مخلوق أن يطأه ؟ من يستطيع أن يقول لها ، إنسى ، ولو كان النسيان فى يدها ما احتاجت إلى مشورة ، ولا احتاجت إلى سؤال وجواب.

إنها تقاوم لكى تنسى . ولكنها ترى نفسها مشدودة بين ماض تعتقد إن له عليها واجب الوفاء ، وحاضر تعتقد أنه يوجب عليها الولاء . . . كيف توفق بينهما، كيف تتخلص من أحدهما لكى تعيش مخلصة لفكرة واحدة ، بعقل واحد ، وولاء واحد ، ووفاء واحد .

هذه مشكلة من غير حل . واحدة من عشرات المشكلات التى تعيش فى القلوب والعقول والأفئدة . تزكو فى صمت ، وتنمو أو تموت فى قداسة لأن نموها هوى القلب ، وموتها تضحية القلب .

وهل هناك أقدس من العواطف الإنسانية تلك التى تدخل فى الأفئدة وكأنها القدر وتعيش بين حنايا الضلوع سراً من الأسرار التى لانعرف كيف جاءت ولا كيف ترحل ؟

لقد تجرأ القاضى الإنجليزى ما كاردى منذ عشرين سنة وأصدر حكماً قال فيه :

« إن الزوجة تملك جسدها ، وليس للزوج أن يجبرها على غير ما تريد » فهل هذا صحيح . وإذا كان صحيحاً فهل هو واقع ؟

وطالبت « جورج ساند » لبنات جنسها منذ عشرات السنين بالحرية فى العواطف والتعبير عنها .وقالت إنها أولى من المطالبة بالحرية الاقتصادية والحرية السياسية .

المرأة الأخرى

وصفت تجربتها كما يلى :

« لست أدرى من أكون عل التحديد ؟ مخطئة ؟ كلا . . طاهرة لا أخطىء ؟ . . كلا . . محبة لا آثم ؟ . . كلا . . آثمة لا أحب ؟ . كلا . . أحس كأن لى شخصيتين منفصلتين ، وأعجب أحياناً من تصرفاتى كأن امرأة أخرى هى التى أقدمت عليها .

قال الرجل الذى أحببته من كل قلبى ، وكان مناى وأحلامى منذ عرفت فى الدنيا المنى والأحلام : سمعت أنك تخطئين . . لا تحاولى . .

قلت وكأن امرأة أخرى تتحدث : ومن قال إننى سأحاول ، ما سمعته صحيح .

ــ حتى قبل أن أرويه لك ؟ .

ــ أنا أعرف نفسى . . . كلا ، أنا أعرف المرأة الأخرى التى فى داخلى . . . سبق أن اعترفت لك بأغلاطى . .

قال وهو مضطرب مكفهر الوجه : هذه أغلاط جديدة لم تكشفى عنها

أجبت فى بساطة : لأننى شطبتها ، لاأعرف الآن إننى أخطأت ، امرأة أخرى هى التى . . .

وقبل أن أتم حديثى قال وهو مبهوت : امرأة أخرى . . . أنت مجنونة .

قلت فى هدوء : المرأة الفاضلة فى . . هى التى تعرفها وهى التى تحبك ،

هى حياتى الحقيقية ، أما المرأة الأخرى فطارئ يظهر ويختفى . .

تبسم فى سخرية وقال : يلوح أن ظهورها كثر فى هذه الأيام . .

أجبت غاضبة : لا تجرحنى ، أنا الآن المرأة الفاضلة . .

زادت سخريته : نظرية جديدة لتبرير الخطأ . .

قلت وأنا أغالب ألماً فى أعماق : أنت الذى تقول هذا ؟ ساعدنى . . إننى أختنق ، المرأة الأخرى تتحرك فى داخلى . .

وانتفضت وأنا جالسة وارتعشت أوصالى ، خيل إلى أنها تدخل فى جسدى وأنا أقاومها ، وصرخت : أنقذنى . .

وجمعنى بين ذراعيه ، وغمرتنى منه نظرة فيها مغفرة وعتب ، قلت : احمنى .

واندلقت دموع غزيرة من عينى ، بينما قال وهو متشبث بى : أحميك مماذا ؟ .

ـ من هذه المرأة . . . الشيطان ، أنا ضعيفة .

ـ ألا يعطيك الحب قوة ؟

ـ ويعطينى أحياناً الضعف . . . أريد أن انتقم منك .

ـ بالخطأ ؟ . .

ـ ليس لدى وسيلة أخرى ، أعنى ليس لدى هذه المرأة وسيلة أخرى .

ـ توافقين على تصرفاتها ؟

ـ إننى أشطبها ، لا أعترف بها . .

ـ ولكن الخطأ يقع ، تقعين فيه .

وسألته وعينى تذهب إلى بعيد ، فى شىء مجهول : ما هو الخطأ
هل هو الواقعة المادية أم الإحساس به ؟

أجابنى بعد أن نزعنى برفق من أحضانه : كلاهما ،
أنت امرأة عجيبة . .

سألت أيضاً : وما هى المرأة العجيبة ؟ . أنا وحدى ؟ . أليس لى نظائر

ـ المرأة العجيبة هى المخالفة للمألوف . .

ـ وما هو المألوف ، صنعه الناس ، أم صنعته الطبيعة . .

قال فى ضيق : أنت تحاولين أن تسترى خطأك بالسفسطة ؟ . .

ـ كلا ، أنا لا أحاول أن أستر خطأ . . أنا لم أخطىء . .

ـ وتكذبين ؟

ـ لا أكذب ، هذا هو شعورى الحقيق ، المرأة الأخرى هى التى
أخطأت ، أنت لا تستطيع أن تطردها ، الحب لا يستطيع ، إنها تعذبنى ،
تنفذ إلىّ من نقطة الضعف ، وتلبسنى كالشيطان .

صرخ : أنت الشيطان ، ابتعدى عنى .

همست فى هدوء وبرود : ستأخذنى المرأة الأخرى ، ستستولى علىّ
تماماً . . إنها الآن تملك منى فترات ضعف قليلة . . وها أنت ذا تتخلى
عنى ، أنت عدوها الوحيد ، أنت الفضيلة الوحيدة الباقية .

وسكت ، بينما التمعت عيناه بشعاع غريب وقال : والآن . . .

قلت فى سكون ذليل : الحل فى يديك .

ـ وأنت ؟ . .

ـ كما ترى . . سامحتنى من قبل ، لماذا تصر الآن ؟

ـ الخطأ المتكرر لا يقبل المغفرة . .

ـ إذن أنت لا تريدنى. . .أنامنصرفة، لن ترى وجهى بعد الآن ، إن المرأة الأخرى سعيدة ، أنا سعيدة ، تخلصت من القيود .

ـ وهل كان الحب قيداً ؟ . .

ـ بالنسبة للمرأة الأخرى نعم .

ـ وبالنسبة لك . .

ـ لم أعد أنا . . . أنا الآن المرأة الأخرى ..

ـ ألا تندمين ؟

ـ الشيطان لا يندم .

وتهيأت للانصراف، كنت أضحك وأعبث وأغنى ، لم أكن أنا فعلا. ونظر لى الرجل دهشاً وهو لا يكاد يصدق . قال فى حزن كظيم : أنت ؟ .

قلت فى برود : لست أنا .

سأل : وإلى أين ؟

قلت : كما تريد سيدتى ، المرأة الأخرى ، إلى الشارع ، إلى الكاباريه ، مع أول نداء ، وأنت ما شأنك بى ؟ عرفتنى فى مرقص ، إلى المرقص مثلاً . .

ـ حاولت أن أنقذك ولكن . . .

وأضفت فى دلال : فشلت ، أنت رجل فاشل ، المرأة الأخرى أقوى منك .

ـ بل قولى الشيطان . ؟

ـ سمها كما تشاء . . . أنا ألوذ بالأقوى ، وهى الآن كذلك .

ـ ستتخلى عنك .

ـ متى تخلت عنى عدت إليك . . .

ـ أنا بالنسبة إليك مجرد ملجأ ، أخرجى ولا تعودى .

وخرجت منطلقة كأنني سعيدة ، واستبدت بى المرأة الأخرى أسوأ ما يكون الاستبداد وامتهنت جسدى وروحى وعقلى حتى أصبحت حطاماً...

وذهبت إلى الرجل كسيرة متهاوية ، قال : عدت .

أجبت : كان لا بد أن أعود . . . قتلتها .

ـ من ؟

ـ المرأة الأخرى .

ـ تطهرت ؟ . .

ـ حتى النفس الأخير . . . أصبحت امرأة جديدة . مارست التجربة إلى أقصاها . . . الفتات لا يشبع ، واللمحات تغرى بالمزيد » .

أكانت خطيئة ؟

تلقيت رسالة من سيدة مريضة . . . ولم توقع خطابها . فأنا لا أعرف من هى حتى ولا اسمها ، وهى لا تطلب إلى أن أدعو لها بالشفاء ، ولكنها تقول إنها تموت راضية . لقد تمنت الموت لكى ينقذها من آلامها ومتاعبها . سألتنى . أكانت مخطئة حينما أحبت . إنها تشعر أنها تكفر عن خطيئة هذا الحب ، ولكنها تحس أيضاً بأن روحها إذ تصعد إلى ربها ، إنما تصعد راضية مؤمنة ، محبة وفية .

إن قصتها أروع قصة للوفاء . إن الرجل الذى أحبته لا يعرف حتى اليوم أنها تحبه كل هذا الحب، ربما ظن أنها نسيته أو هربت منه . ربما ظن أنها كانت تؤثر عليه أحداً آخر فى هذا الوجود . ربما كان لاهياً فى هذه اللحظة التى يخبو فيها آخر قبس من تلك النفس الوفية المطمئنة الراضية. أحبت من غير أمل ، وعاشت فى الحب واليأس خمسة أعوام، كانت هى كل حياتها . كانت عالمها الذى ذاقت فيه السلام والخوف والندم والغبطة والمتاع .

حاولت أن تكف نفسها عن هذه العاطفة . عالجت أن تسافر ، أن تتلهى بعمل، عالجت حتى أن تقنع نفسها بأنه لا يستحق كل هذا الوفاء. وكثيراً ما ارتابت فيه وحاولت أن تنمى هذه الريبة، وأن تجعله إنساناً ككل الناس ، ولكن الحب كان يجرده أمام ناظريها من كل النقائص ، ويرفعه

إلى مرتبة القديسين . جعلته مع الأطياف العلوية ، مع النور الملتمع فى انبثاق الفجر ، مع الموج المتكسر فى البحر ، مع الأريج المتضوع من الزهر . جعلته فى كل شىء جميل ساحر آسر ، بل جعلته كل شىء جميل ساحر آسر .

وهدتها العاطفة . استنفدت من قلبها كل نبض ، ومن فؤادها كل نجوى ، ومن كيانها كل قوة ، فإذا هى تجثو على ركبتيها أمام المرض ، وكأنها تجثو متعبدة فى محراب .

ووعدت أن تبعث لى برسالة أخرى إذا طالت حياتها . . قالت : لعلك تعجب إذا عرفت إنى أقابل الموت ببسمة فيها سكون عجيب . لقد طالما تمنيت أن أموت . إن الموت وحده هو التكفير عن الخطيئة . ولكننى أسألك : هل الحب خطيئة ؟ إذن لماذا خلق الله لنا قلوباً تنبض؟ إنى سأذهب إلى لقائه مطمئنة إلى عدله ورحمته ، فهو وحده يعلم السر والنجوى .

وما أحسب إلا أن كل إنسان سيدعو لها بالشفاء . إنها قلب معذب ، وروح صفت من الشوائب . إنها تقابل مصيرها بشجاعة نادرة . ولكنها ستعيش ، ستعيش ، سيمنحها الحب الحياة . لقد حول حياتها — كما تقول — من جحيم إلى نعيم . جعلها تذوق ما فى الدنيا وتحس ما فيها . كانت ، قبل أن ينبض قلبها ، فى جفاف . لم تكن تكترث بشىء . كان البحر والزهر والفجر وهذا الجمال الذى منحنا الله إياه لاقيمة له . لم تكن تشعر به . ولم تكن تشعر بما هى فيه من حياة رخية مترفة . كان كل

شيء لا طعم له ، لا مذاق فيه . لا تنفعل بشيء ولا تتحرك لشيء . فلما طلعت عليها هذه العاطفة ، جعلتها أشد ما تكون إحساساً بالحياة ، لأنها وجدت الشريك الذى يثير فيها التمتع بالجمال . وشكرت لله نعمته . شكرت له أن ردها إلى الحياة . ولكن الشعور بالخطيئة والندم أخذ يتسرب إليها شيئاً فشيئاً . ونما فى قلبها وكيانها وفؤادها ، فاختلط هناؤها بغصة ، واختلطت نعماؤها بشقاء مقيم . كانت تسأل نفسها وتجيب ، وتطوى جوانحها إذا جاء الليل، وكأنها فى حلم لاتريد أن تستيقظ منه، وإذا استيقظت ، ردت نفسها إلى غفوة حتى تستر عن عينيها الحقيقة المروعة .

وأخذت صحتها تتدهور . كانت فى صراع مر مدمر . أرادت أن تعود إلى ما كانت عليه ولكنها لم تستطع . أرادت أن تستمر فيما هى فيه من هناء، ولكنها لم تستطع .

ورحبت بالمرض إذ جاء . ولمحت أنه يزداد ويثقل ، ويطل عليها من ثناياه لمعة من ضوء منير . إنه وجه الله الكريم ، يدعوها إليه لكى يرحمها ويغفر لها .

وضمت يديها على صدرها كأنها تصلى . . أحست أنها أقرب ما تكون إلى الله . لقد كفرت بالمرض عن الخطيئة . وكفرت بالجسد المعذب الذى يخبو رويداً رويداً عن لمحات السعادة التى رفعتها فوق العالمين ، وإنها لقسمة عادلة . أنها لا تشكو . لقد شربت من السعادة حتى ارتوت . لم يبق لها فى الدنيا ما تأسى عليه أو تخاف ، إنها تبتغى رحمة الله . . وسيمنحها إياها.

لمن تكون الرحمة إذن ؟

فات الأوان

استسلمت لحزنها أرق ما يكون الاستسلام. ألفته كصديق طالت عشرته فلم تنكر منه ما ينكر الناس وليس كالألفة شيء يضفى الستار على المحاسن والعيوب جميعاً. أضحى الابتسام غريباً عن دنياها ! وأضحى الرعب من المجهول زادها . فقدت زوجها فعاشت لأطفالها . كان الزوج هو السند والظل والأمان ، فلما فقدته أنهار الجدار ، وأحست أن دنياها أصبحت مكشوفة وعرينها صار هدفاً للسهام .

ودخلت فى القوقعة تستر بالإنطواء ما فى نفسها من خوف ، وتجبر ما فى قلبها من انكسار . وشمل الحزن الصامت حياتها ولفها فى رداء أحست أنه القرين والقريب والصديق وإنه قسمتها من الحياة

كانت تنظر إلى طفليها الراقدين إلى جوارها فتحسب جسدها قد شف وشف حتى أصبح ملاكا يرفرف بأجنحته مع رؤاهما وأحلامهما ، وتذهب فى هذا الخيال إلى أبعد مما يمنح الخيال ، فإذا هى راضية فى كساء حزنها ، متبسمة فى علياء نفسها !.

ونما الطفلان . ونما معهما حزنها وحبها. حجبت نفسها عن متعة الحياة وجعلت شبابها وجمالها فداء حزنها وحبها . كانت تراهما فتأنس إليهما ويأنسان إليها وأدخلتهما قوقعتها وأطبقت الصدفة عليها وعليهما ، وحسبت أنها أكثر اطمئناناً من شر الدهر على قوقعة صغيرة مطوية .

وقالت : كلما انتشرت المساحة زادت المخاوف وأنا امرأة حولي إغراء وفي قلبي ضعف . القوقعة تحميني وتصد عني الإغراء والضعف .

وكبر الصبي وكبرت الفتاة وأصرت الأم أن تحفظهما في قوقعتها وتطوي جناحيها عليهما نذرت وقتها كله لهما ونذرت حبها وحنانها .

كانا دنياها وعزاءها وأملها .

ثم كان هذا المساء .

اتصلت بها صديقة ورجتها أن تأتي إلى زيارتها وتخرج من هذه العزلة التي فرضتها على نفسها . وقالت الصديقة ستقضين وقتاً ممتعاً تسمعين فيه الموسيقى وتشاهدين رقصاً وفيلماً سيمائيا .

وقالت الأم : شكراً يا صاحبتي : أوثر أن أظل في البيت هذا المساء من أجل الأولاد .

وفرغ الفتى من طعامه وبقي في البيت برهة ثم استأذن في الانصراف وسألته أمه : إلى أين يا بني ؟

قال : سألعب بنج بنج مع طارق ابن الجيران .

وأجابت في صوت فيه ضراعة وتوسل : ابق معي يا ممدوح .

قال : وهو يقفز منصرفاً : سأعود حالاً يا أمي .

وفرغت « منى » هي الأخرى من تصفيف شعرها وعقصته ديل حصان ، وقالت : أنا خارجة يا ماما . .

زاغت عينا الأم وبللهما دمع مكتوم وقالت · وأنت أيضاً يا منى !

أجابت : سلوى ستسمعني قطعة موسيقية ألفتها . .

وسكتت الأم بينما انطلقت « منى » فى مرح العمر المتفتح وجمال الزهر المتبسم تقفل الباب وراءها .

وانكفأت الأم على المائدة التى كانت أمامها ودفنت وجهها بين كفيها وأخذت تنتحب .

لقد خرج الفتى والفتاة من القوقعة ، وأضحت وحدها فيها .. كيف تقتات ؟ كيف تعيش ؟

نذرت شبابها لهما وحسبت أنهما سيؤنسان أبداً وحدتها ، وها هما ينصرفان كل لشأنه ، وتبقى هى وحيدة ليس معها سوى الذكريات ، وليس فى قلبها إلا الألم على العمر الذاهب والولد الذاهب .

أدركت أنها لا تستطيع أن تجمع فى قوقعة واحدة إلا حياتهاوحدها . أدركت أن ولديها فرع من شجرة وقد كبرا وآن لهما أن ينفصلا ويتركا الشجرة فى مهب العواصف .

وأحست المرأة الوحيدة بالبرد يسرى فى أوصالهافضمت ملابسها إلى جسدها وانكمشت بعضها فى البعض الآخر وانطوت كأنها كتاب فرغ صاحبه من قراءة سطوره ..

وفكرت : هل أخرج أنا أيضاً من القوقعة ؟

وأحست همساً مريراً كأنه يهتف بها : لقد فات الأوان .

قلب المرأة

كنا نتحدث عن قلب المرأة .

وقال واحد : تستطيع أن تملكه بالحنان . وقال ثان : إن الطريق إليه العنف . وقال ثالث : بل الإهمال . وقال رابع : إن أحداً لا يستطيع أن يملكه ولكن المرأة إذا أرادت قدمته من غير ثمن ولا أمل .

وقال خامس : إنها مخلوق تافه ، متقلب لا تستقر لها عاطفة . إنها معقدة وخير سياسة معها أن تقاد ولو صرخت وبكت . وقد بحثت البابوية القديمة فى روما فيما إذا كان للمرأة روح مستقل أم لا ، وعندى أنها تابع للرجل ، ناقصة عقل ودين .

واشتد الحوار وعنف . وطال الوقت دون أن يسلم أحد أو يسكت . وقلت : لعل كل واحد منكم يحكم بتجربته وربما كان كل ما قلتموه صحيحاً وتحسبون أن ما يصلح للاقتراب من قلب يصلح للاقتراب من قلب آخر وهل صيغت القلوب جميعاً على غرار واحد ؟

وأدى هذا التدخل إلى تلطيف الجو وانقلب الحديث من الجد إلى الفكاهة ولكن الموضوع بقى فى ذهني ورسب . وسألت نفسى . هل للمرأة قلب يختلف عن قلب الرجل أم أن الانفعالات التى تصيب كلا منهما تؤدى إلى نتائج واحدة .

عندى أن المرأة أعمق فى عواطفها من الرجل . وقد يسهل عليك أن

تكشف قلب الرجل ، ولكنك لا تستطيع بسهولة أن تكشف قلب المرأة . إن من الزوجات من تقضي السنوات مع زوجها وهي تمثل دور المحبة الولهانة ، بينما يكون قلبها في واد آخر ، وهي تحفظ الإساءة أطول مما يحفظها الرجل ، ولا تغفر قط ما يمس أنوثتها . وكما تخفي البغضاء تخفي الحب ولكنها يوم تكشف نفسها ، لا تتسامح في اللعب بعواطفها . وهي مثالية أكثر من الرجل . الخطيئة تعصف بكيانها ، والذنب يؤرقها ولكن عواطفها دائماً أقوى من الخطيئة والذنب .

ومعين الحنان الذي في قلبها يسع الدنيا إذا أحبت ، فإذا أبغضت انقلبت قاسية كالحجر . الحب حياتها ، فإذا أقفر قلبها منه أقفرت حياتها . الحب عندها تملك ، وهو عند الرجل إيثار .

والرجل لا يفهم عواطفه كما تفهم المرأة عواطفها . وقد يضطرب الأمر على الرجل فلا يعرف ما إذا كان شعوره حبا أو إعجاباً أو رغبة أو تهوراً ولكن المرأة قلما تخطيء فهم شعورها .

وقلب المرأة ملفوف في وراثات وتقاليد ومخاوف ونزعات ورغبات وشهوات مكبوتة ، ومن هنا كان استخفاؤها وغموضها واضطرابها . . وكان هذا العمق الذي يشاهد في تعبيراتها وتصرفاتها .

وكل امرأة تجمع في قلبها شعور الأم والأخت والعشيقة والقديسة والمستهترة فإذا أحبت بعمق فقد اجتمعت كل هذه الأنواع في قلبها ، وتفجرت منه ينابيع سعادة لا مثيل لها وأضحى حبها كالعاصفة لا يبقى على شيء .

وحياتها العاطفية مضطربة اضطراباً لا حد له ، فإذا فهمها رجل أوت عليه ، وإذا أساء فهمها ، فقد دخل وإياها فى جحيم لا غاية لعذابه .

وهى كتوم . دموعها نجواها ، وخيالها حبيبها ، ونظرات عينيها واختلاجات شفتيها أصدق من لسانها . جسدها أعز عليها من كل شىء ، قد تبذله سماحاً تحت ظروف ضاغطة ، ولكنها تفعل ذلك فى مرارة وغيظ وضيق ، وتتمنى لو انتقمت من الرجل الذى اشتراها زوجة أو عشيقة أو ائعة هوى .

عودة الإيمان

وضعت رأسها على وسادتها ، وأغمضت عينين فيهما قلق وخوف واضطراب .. ومن عجب ألا يكون فى الصمت الهدوء والسلام ..؟ كانت كمن كان فى معركة وانتهت . فهى اليوم تقف على أشلاء الضحايا .. ضحاياها هى .. أم كانت هى الضحية ؟ اختلطت فى خيالها الأشلاء فلم تعرف على التحديد هل هى التى وجهت السهام أم أنها هى التى تلقت السهام .. وفرت دمعة من عينيها فى مثل الصمت الذى يشملها .. كانت محرقة لأنها كانت دمعة مزجت فيها خيالها وأملها وحبها وحياتها .. آمنت بكل شىء جميل فى الدنيا ، بوجه رقيق تحبه ويحبها ، بإنسان عذب يطوى مخاوفها وينشر عليها طمأنينته .. وحسبت أنها لقيته ولكنه خانها ، فلم تحتمل الصدمة .. وتولاها جزع عنيف وراحت كالمجنونة تدمر كل شىء وتسخر من كل قيمة .. ولكنها كانت فى سورة غضبها لا تزال تؤمن بالحب. كان فى أعماقها خيالا حياً لا يموت . كان صمام الأمان يشدها ويحفظها ويحميها ويذود عنها. وجدت أن كل شىء وكل تجربة تنكره .. ولكنها لم تشأ أن تؤمن بالشىء والتجربة وآثرت أن تؤمن بالهاتف العميق فى نفسها .. لم تستطع أن تتصور حياتها بغير حب . ودخلت فى تجربتها الأخيرة . رمت شباكها . كانت المعركة الحاسمة فى حياتها .. ولاح لها فى وقت من الأوقات أنها انتصرت .. ظفرت أخيراً

بالحب الذى تريده . . واستراحت . . أرخت رأسها على الصدر الحنون . كانت مجهدة من طول السير . . قالت : أنت حياتى . . هل تستطيع أن تفسر الحب . . . ؟

قال : فسريه أنت . . إنى فى نشوة ومن يكون فى نشوة لا يستطيع أن يتكلم . . إننى أعيش للحب .

سألته : وإن تمله . . ؟

قال : هل يمل الإنسان السعادة . . ؟

سألته : وما هى السعادة . . ؟

قال : لا أعرف أن أصفها ، لأنها فى داخلى . . جزء من كيانى . . ترينها فى عينى ، وأراها فى الحقيقة والخيال . .

سألته : ألا تستطيع أن تحدد معالمها ؟

أجاب : إن الشىء الذى نستطيع تحديد معالمه ينبغى أن يكون بعيدا عنا لا يشملنا ولا يسيطر علينا . وأنا الآن فى غمرة السعادة ، فكيف أستطيع تحديد معالم شىء يشملنى من يمين ويسار ؟ أنا جزء منه وهو المسيطر . وكيف يستطيع الجزء أن يحدد معالم الكل ؟

سألته : هل الحب هو السعادة ؟ .

أجاب : تخلطين ولا تعرفين كيف تسألين . . إن الحب يشمل الإنسان والسعادة تشمله وكيف يمكن تحديد المعالم بين شيئين كلاهما شامل محيط ؟

قالت : أنت تتفلسف . .

أجاب . كلا نحن نلتمس التعريف للشيء لكي نحاول تحقيقه ، فإذا كنا نعيش فيه فلماذا نشغل أنفسنا بالبحث عن تعريف له . . ؟

* * *

وعاشت فى عقله وحلمه وخياله . احتوتها سعادة لم تعرف هل هى الحب أم غيره . . عاشت فى معجزة من صنعه ، ويكفى أن تكون المعجزة من صنع رجل لكى تكون الحب . ورجعت إلى أعماقها ، فألفت كأنها تتحرك ، كأنها تضطرب ، كأنها تموج بأضواء وإشعاعات وأحلام عذبة جمعت الدنيا من أطرافها ، وملأتها حنيناً وشوقاً . .

ثم وقعت الكارثة . أفاقت من حلمها . . لقد ذاقت الخيانة مرة ونهضت لكى تسترد إيمانها بالحب وارتد إليها أقوى مما كان . . أما الخيانة الثانية فماذا تكون . . ؟ لم تتصورها . . كان فى داخلها إيمان قوى . إنه شيء غير طبيعى أن ينتهى هذا النور الباهر العجيب إلى ظلام كئيب . لم تتصور أن ينبت من هذا الزهر العذب ذى الأريج الساحر شوك قاتل . . ؟

ولكنه نبت . . عرفت أن رجلها ليس أميناً . وارتاعت ، لماذا . . ؟ هل سئم السعادة . . ؟ هل سئم الحب . . ؟ هل سئم أن يشمله أو أن تشمله السعادة . . ؟ هل اشتاق للضياع بين هذه وتلك . . ؟ هل سئم الطهر والهناء وأراد أن يجرى على هواه . ؟ واضطرب إيمانها ، واهتزت أعماقها ، وتسلل من قلبها الإيمان بكل شيء جميل ؟ وكان أن فرت هذه الدمعة من عينيها وكأنها تحمل معها أسى العمر كله ، وهناء العمر كله .

* * *

وشعرت بوحشة عجيبة . . شعرت كأن الدنيا تحولت إلى صحراء مجدبة. أين الزهور والأحلام والأمانى . . ؟ أين الضياء الذى شملها يوماً من الأيام. وانهارت فى خاطرها كل المثل والقيم وأحست أنها وحدها . . كل ما حولها تحول إلى أنقاض . وانقبض صدرها كأنه قصف المبنى الضخم وهو يتشقق ، وهو يتبدد ، وهو يتحول إلى تراب . .

ولم تستطع أن تتنفس. . انكفأت على وجهها وأخفت عينيها عن الدنيا ، وأخفت الدنيا عن عينيها . . ولكن كل ما فيها أضاء فى قلبها . . فإذا الصورة التى هربت منها تلاحقها . . ونهضت من فراشها وأشعلت نور غرفتها . . تصورت أنها مملوءة بأشباح تطاردها وفتحت القرآن وأخذت تقرأ . . وطامن صدرها ترتيل عذب أخذ ينفث فى فؤادها شيئاً من الطمأنينة وتابعت القراءة وكأنها تقترب من الله شيئاً فشيئاً . . وأخذ ضوء خافت مضطرب متلعثم يشع من قلبها وشيئاً فشيئاً أخذ يزداد . . وثابت إليها نفحة من السكون والسلام . .

وبدأت ذاكرتها تنتعش . . وأطبقت الكتاب الكريم. . وأخذت تتأمل . . تهافتت عليها ذكريات حبها الجميل . وأحست براحة لأنها بدأت تعيش فيه من جديد . . فيه . . ؟ كلا . . فى ذكراه . . ؟ ثم انتفضت وقالت تحدث نفسها : كيف أسعد بالذكرى ، بذكرى شىء لم أعد أومن به .

وسألت نفسها : هل هذا إشعاع إيمان جديد . . ؟ إيمان جديد بالحب . . ؟

واضطربت وهى تتأمل : هل تتكرر المأساة مرة أخرى . . ؟

بائعة الهوى

كان الصف الذى أمامى خالياً أو يكاد . . بضعة أفراد فى جانبيه وفراغ كبير فى وسطه ، ولمحت فى هذا الفراغ فتاة جالسة وحدها ، سمراء صغيرة ، لم تبلغ الخامسة والعشرين . زينتها تدل على أنها ليست أنيقة بنشأتها ، الألوان صارخة ،شعرها أكرت ، تقاطيعهافيها صمت وامتهان نظراتها فيها جوع ونداء .

ولست أدرى لماذا لفتت نظرى فأخذت أرقبها. ربما لأنها كانت وحدها ، أو لعل ثيابها وأسلوب زينتها وما كان يشع من عينيها ، كل أولئك أثار حولها – فى نظرى – جواً غير مألوف. . وربما لأن كثيرين ممن كانوا فى السينما كانوا يلتفتون إليها . . مهمايكن ، فقد ألفيت نفسى أرقبها . وفتحت صندوقاً وتناولت منه سيجارة وأخذت تنفث دخانها فى استهتار ، وترفع رأسها مع دوائر الدخان كأنها تحلم معها ، أو تسألها سر الغيب المستور وراءها . .

وفى الاستراحة نادت على البائع وأخذت مشروباً ، ثم نهضت وبعد لحظة عادت . . وما كادت تستقر حتى نهضت من جديد ، نظراتها موزعة على الجميع .. ليس فى وجهها استقرار ، ولا فى كيانها هدوء . . وأدركت أنها بائعة من بائعات الهوى. بدأت الحرفة منذ أمد وجيز . كان ذلك ظاهراً فى مشيتها وحركاتها ولفتاتها . ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت

ساذجة تريد أن تقفز مرة واحدة إلى مركز المرأة الجريئة ، ولعلها تضع أمام ناظريها أنموذجاً تريد تقليده . ومن هنا كانت ابتساماتها الخليعة وتثنيها الذى تقصد به إلى الإغراء أكثر مما تقصد إلى الإدلال بالجمال .

وعادت ومعها شاب ، ولم تشعر بالعيون التى كانت ترمقها باشمئزاز . لاح أنها فخور بنجاحها ، وكان الشاب ساذجاً ، ربما لم يعرف من قبل فتيات وربما لم يجرب سحر ابتسامة فيها نداء . . ولعله أحس أن ابتسامة الفتاة له فتلقاها ببراءة ، وتلقته صيداً لا بأس به .

وجلست إلى جواره . وكانت الرواية قد بدأت ، ولاح أن الشاب خجول جدا ، ربما كان يفكر فى كلمة غزل رقيق يبدأ بها مغامرته الأولى ، بينما كانت الفتاة تقيسه طولاً وعرضاً ، وتحسب فى دماغها الصغير كم يستطيع أن يدفع وهل هو غنى أم فقير . . متعلم أم جاهل ؟ لا ليس هذا هو المقصود . ليكن أجهل الناس ، إنها تريد شراء فستان أغلى ، وعقد أفخم ، وعطور من التى يجعل أريجها رءوس الرجال تميل .

ولم أسمع حديثهما فقد كان همساً ، وإن بدا أن الفتاة تتحدث أكثر وتنظر أكثر وتعبر عن نفسها أكثر مما يفعل المسكين الذى غرق فى الأحلام.

ولما انتهت الرواية ، وضعت الفتاة يدها فى يد الشاب ، وخرجت فى زهو عجيب .

كانت أنوثتها راضية ، وحرفتها راضية . فى وجهها ابتسام ازداد اطمئناناً إلى قدرتها على صيد القلوب . . وعلى بعد قليل من دار السينما ، وقف الشاب فى أدب وهو يفتح سيارته الصغيرة الأنيقة ويطلب إلى

الفتاة أن تركب ، وركبت فى رشاقة . ومن المؤكد أنها لم تكن تتصور أن له سيارة صغيرة أو كبيرة ، ومن المؤكد أنها أخذت تعيد فى رأسها الصغير الحساب القديم ، ومن المؤكد أنها استرسلت فى آمال جميلة وجديد :

ولما انطلقت بهما السيارة قلت فى نفسى . أنها هنا تبدأ . . . ترى كيف تكون نهايتها ؟

الإعجاب بالذات

قالت : أتراني غير طبيعية . لقد كفرت بالرجال . استبدت بي رغبة شديدة أن أرى دموعهم ولا أجففها . أن أحرق قلوبهم ولا أطفىء نارها أصبحت معجبة بنفسي إلى حد أخذيزعجني . أقف أمام المرآة فتروعني ابتسامة وجهي ، ويفتنني سواد شعري وغزارته . وأستدير وأنثني وأقف وأضطجع ، أخلع هذا الفستان وألبس ذاك ، أتعرى وأكتسي ... أعيش مع فتنتي وشبابي وإغرائي ساعة بل ساعتين وأكثر في بعض الأحوال ، في غرفة مقفلة . . وأسائل نفسي : كل هذا الجمال والشباب ، هل يستحقه أحد ، رجل . . . يا للسخرية ، بل كلب . . . نعم كل الرجال كلاب ، فيهم ذلتها وشرهها ، وليس فيهم أمانتها ووفاؤها . . . كلا ، لن يكون ، لن أسمح لرجل أن يمس شعرة من جسمي . . . ولن أسمح لعواطفي أن تضطرب لمخلوق . ستظل ملكاً لي . . . لي أنا سأنفق كل ما عندي كي اشترى أجمل الفساتين وأحصل على أبدع التسريحات وأقتني أغلى الجواهر والعطور .

وسكتت لحظة كأنما تسترد أنفاسها واستطردت : ستقول إني مجنونة ، فليكن . سأسير في الشارع وأنفي في السماء . لن أكون جافة . سأجعل فتنتي مطمع كل رجل ، حتى إذا اقترب من النار تلذذت بجلده وهو يشوى ، وقلبه وهو ينسكب تحت قدمي عصباً بعد عصب . استيقظت في رغبة

عجيبة فى الانتقام . ستقول إننى شريرة ، لقد كنت رقيقة هادئة . نشدت الحب والهناء والسلام ، أعطيت لها كل شيء . نذرت نفسى لهيكلها المقدس . ثم أحسست أن الرجل الذى أحببته كالكلب يلعق كل طبق ... هل تلومنى ؟ هل أنا متجنية؟ هذا الشباب ، هذا الجمال هذا الطهر ، لن يكون لأحد .

ولعلها كانت تنتظر أن أتحدث ، ولكننى آثرت أن أنصت فقالت : لقد كرهته . تحول الحب الذى بذلته له إلى حب لنفسى ، لجسدى وجمالى وشبابى ، ونذرت أن أضن بها جميعاً على الناس ولكنها سلاحى أيضاً للانتقام . سأذهب إلى كل حفلة ، سأشهد كل مجتمع سأسير مزهوة كملكة . لقد حطمت قلبى ، كان هو الذى يصفعنى وقد نذرت أن أعيش بغير قلب ، بغير عاطفة .

قلت : ستكون حياتك جافة ، لن تطيقيها ... امرأة بلا عاطفة ، جسد بلا روح ... كلا ، إنها ثورة الأنوثة الجريحة ، ستستردين ثقتك بالناس .

قالت : أراهنك لقد خلقت خلقاً جديداً . كنت غافية وصحوت .

قلت : إننا لا نخلق إلا مرة واحدة . وقلبك الذى قدس الحب مرة لا يمكن أن يكفر به إلى الأبد .

وضحكت ضحكة هسترية ساخرة :

وقالت : الحب أكذوبة كبيرة .

الأيقونة المقدسة

بدأت حياتها كالأيقونة المقدسة ، كالزهرة المختفية فى الآكام ، فلما بدأت تخرج إلى العالم ، خرجت فى رقة وعذوبة وتغاريد .

بدأت الأنوثة تتسلل إليها كما يتسلل النور فى الظلام . واستقبلتها كأنها تستقبل الأسرار المقدسة ، واستنشقتها كأنها تستنشق عبير زهر ذى عطر ملائكى . أحست فى جسدها بدبيب رقيق عذب عجيب ، وتولاها شىء من الخوف والرهبة وتمنت لو تسأل عن هذا الطارق الجديد ، ولكنها استحيت فتركت آية الكون الكبرى تبلغ ميلادها المحتوم . ولمحت فى جسمها تغيراً ، وفى صوتها نعومة ، وفى عينيها خفراً وحياء . . بدأت تغضى وتحمر خجلاً .

وكانت أول أمرها لا تحاول أن تستر شيئاً . أما الآن فقد خيل إليها أن كل شىء أضحى كنزاً غالياً لا ينبغى أن تقتحمه العيون . لم تكن ترى أن عندها سرًّا تخفيه ، فإذا بها اليوم تحس أنها تحولت إلى سر يجب أن تخفيه . بدأ نور القمر يأسر لبها ، وحفيف الشجر يحرك كوامن مشاعرها . أضحى الفجر له مغزى ، والظلام له مغزى والمطر والعواصف والكواكب كلها أصبحت ذات مغزى .

كان الأولاد والبنات ، كلا الجنسين ، لا تفريق بينهما فى نظرها . . . الصور التى تنشرها الصحف لم يكن يلفت نظرها منها إلا ما

يلفت نظرها دائماً، تضحك من الوضع المضحك ، وتزم شفتيها من الوضع الذى لايعجبها . صور الرجال كصور النساء ، كصور البيوت ، كصور الحوادث والأنهار والشوارع والجبال كلها مرئيات ، ميزان التفريق بينها الجمال والقبح .. ثم لا شىء غيرهما ... ما بالها الآن تفتح عينيها على معان جديدة .. ما بال جسدها وقلبها وعقلها وكيانها يضع اليوم موازين جديدة . . . مالها بدأت تحس بشعورين مختلفين لصور الرجال وصور النساء . . . مالها تطيل التحديق فى صورة هذا الرجل ؟ ما لها ترتاح إذا استمرت تنظر فيها ؟ وما لها تشعر بحقد إلى صورة هذه المرأة ؟ مالها تنظر إلى جمال عينيها وتقاسيم جسدها ولفتاتها وانثناءاتها .

وجاء ابن عمها ذات يوم، فتى فى مثل سنها أو يكبرها بعام أو عامين قال سنعوم فى البحر اليوم .

واضطربت على غير عادتها، كم من مرة فعلت ذلك دون أن تضطرب، كم من مرة جرت وإياه فى حديقة منزله ؟ كم من مرة لاعبته ولاعبها ؟ كم من مرة اشتركت وإياه ومعهما إخوتها وأخواتها وبنات عمها دون أن تحس بهذا الشعور الغريب الذى أثاره فى نفسها مجرد تنبيه إلى أنهما سيعومان فى البحر سويا

وأغضت حياء وأسبلت جفنين التهبا كالنار. وحدجته بنظرة ، فيها من الشعاع الناطق أكثر مما فيها من مجرد رؤيته . . . ولو سألوها ماذا كان يلبس ما عرفت كيف تجيب . . لو سألوها كيف كان يتكلم ما عرفت كيف تجيب . كانت لا تنظر إليه بمقدار ما كانت تفكر فى الخجل

الذى استحوذ عليها ، والشعور الذى شملها من رأس إلى قدم . ما هو ، هذا الدبيب الرقيق العذب المفعم خوفاً وهناء وتطلعاً وقلقاً كأنه مولود يدخل الحياة لأول مرة ، فرح بها ، قلق منها ، سعيد إذ يرى جديداً ، خائف لأنه لا يعرف هذا الجديد ؟

ولم تكد تجيب على دعوة الفتى بغير هذه النظرة الحيية ، فقد هربت جارية وكأنها تخشى أن يكشف من شعورها ما تخفى ، وكأنها تقول له : كلا ، لقد كبرت .

وبدأت تقرأ القصص وتطيل النظر فى الصور وتنتظر حتى يكمل القمر ، وتقضى الساعات تتأمل بهاءه ونوره وشعاعه وكأنها تناجيه وتناغيه ، وأخذت ترى فى موج البحر المتلاحق صورة فارس يطاردها ، وفى ضوء الفجر اللامع صورة لقاء عذب فى صدر الليل أو آخر النهار ، وفى زقزقة العصافير وحفيف الأشجار همس عاطفة ونجوى غرام .

كانت تقرأ عن الحب أولاً فلا ترى إلا أنه الحب الذى يوجدينها وبين إخوتها وأخواتها وصديقاتها ، وهى تقرأ عنه الآن ، فيأخذها فى نشوة ، ويستولى عليها ، فإذا أصفاده أرق من الانطلاق ، وإذا الذراعان اللتان تلفانها أحنى عليها من كل مافى الدنيا من حنان .

وشكرت لله أن منحها كنزاً هذا جماله وجلاله . ورأت أن روعته يغض منها الإعلان والكشف فأحاطته بقدسية ، وجعلت منه عبادة . وفهمت الحب والجنس أسمى ما يكون الفهم . ضنت بهذا الكنز على العيون النهمة والأجساد الدنسة ، وصلت لله أن يحميها من الذئاب ويصون هذا

الكنز العظيم الجليل إلى أن يأتى صاحبه الذى يريده الله ، فتقتسم وإياه نعمة العيش طول العمر وما يشاء الله من مصير .

ونمت العاطفة بينها وبين ابن عمها وارتبطا بعقد الزواج . وأحست أن الدنيا أضيق من هنائها . وأن العاطفة التى تحملها فى قلبها أحلى من النسائم وأرق من الفجر وأبدع من تكسر الموج . . . كانت عبادة تقدس فيها ربها وكنزها وشريك حياتها .

* * *

ثم وقع ما كسر الأيقونة المقدسة وحلم الزهرة وهى فى ربيع تفتحها . . . شاهدت فتاها بعينيها يخونها مع فتاة أخرى . سكتت ، لم تصرخ ، لم تبك لم تتألم ، فقد كان هناك شىء أقسى من الألم والصراخ والبكاء يجرى فى داخلها . كانت حياتها تنفصل عنها . كانت امالها تتبدد . كانت قداسة الحب والجنس والكنز والأنوثة كلها تتهاوى . . كان المعبد تسقط أعمدته والمعبود يذهب إلى الجحيم .

نزعت خاتم الخطبة ، وعادت كما كانت .

رجعت إلى الصلاة ، إلى الله . كانت تقدس فى ذاته العليا أنوثتها وحبها وشريك حياتها ، وها هى تعود من غير حب ومن غير شريك ، ومعها أنوثتها مجروحة ومعها الله .

كرهت أبى

لست أدرى هل يمكن أن تكره البنت أباها ؟ وقد سألت نفسى وأنا أسمع قصة هذه الفتاة اليوم هل العلاقة التى تنشأ بالدم تستلزم حتماً الحب والوفاء والتضحية ، أم أن علاقة الدم لا تحمل هذه الخلال حتما ، وأن وجودها الحقيقى قائم على المعاملة الحسنة والتبادل فى العواطف والإحساسات

قالت الفتاة : منذ طفولتى وأنا أكره أبى . . . لست أدرى لماذا ؟ كان قاسياً علىّ أنا وأخواتى البنات . كان متجهماً . لا يرانا إلا قسا فى العبارة . لم نسمع منه إلا الأوامر والنواهى . . كان إذا دخل البيت دخلنا غرفنا وانكمشنا فيها كأننا قطط . . . ألغى شخصياتنا وقضى على تفكيرنا . لم نر منه تصرفاً رقيقاً ولا كلمة فيها حنان أو عطف . كنت أخافه كأنه (دراكولا) أو شبح مخيف . .

ولما تزوجت خرجت من بيته وأنا سعيدة . كنت مغتبطة لأننى سأخرج من السجن إلى الحرية . . . لم أتصور أن يكون هناك سجن آخر أقسى من هذا السجن . ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه . . رأيت فى زوجى صورة أبى . . لست أعنى بذلك أنه كان قاسياً فى معاملتى أو كان يحول بينى وبين حريتى . . . كلا ، لقد منحنى من هذه الناحية كل ما أريد بل أكثر مما أريد . . . ولكنى أعنى أننى كرهته . . كان أبى هو الشخص الوحيد ، الرجل الوحيد الذى عرفته . . تمثلت لى فيه الرجولة كلها ،

الصنف كله . . . من سوء حظى أن عيون زوجى كانت مثل عيون أبى . . . كان إذا نظر لى تصورت أنه أبى ، وكان يدهش وأنا أقول له صارخة : أبعدهم عنى أنت بتفكرنى ببابا . . .

ويقول : ولكننى لست بابا . . .

وأبعد وجهى عنه وأقول : ولكنك مثله . . . أنت من صنفه . .

تكونت عندى عقدة قاسية ضد الرجال كلهم . . لم أحب أحداً . . . لا زوجى ولا غيره . . . ثم حدث تطور صغير فى حياتى . . . خالى . . . لست أدرى كيف حدث هذا ؟ أحببته على الرغم من أنه رجل . . كان عطوفاً رقيقاً كثير الفكاهة والمرح . . كنت أرتاح له وأجد فى نفسى الرغبة أن أفضى إليه بكل متاعبى . . أعطانى عواطف الأبوة التى حرمت منها . . كان بالنسبة لى أباً . كنت أشعر معه كما لو كنت طفلة صغيرة ... وجهت إليه كل عواطفى . . الطاقة التى كانت مكبوتة انطلقت

ثم مات خالى ، أصبت بصدمة شديدة . ما زلت ألبس السواد عليه . . لقد مات منذ أربع سنوات . . أنت لا تتصور الحزن الذى دخل قلبى . . الحزن والوحدة والضياع . طاقة الحب التى فى قلبى ، كان لا بد أن أجد شخصاً أمنحها له . . . وأعطيتها لأبى ، لست أدرى كيف حدث هذا ؟ ربما كان نوعاً من المصالحة بين نفسى وبين الرجال . . وربما لأن خالى عدل فكرتى عن الرجال . . . المهم إننى أحببت أبى حبا جنونيا . . أصبحت أخاف عليه وأكره أن أسمع كلمة تمسه . . ارتفع أمام عينى ارتفاعاً كبيراً . كان أنموذجاً للرجل الكامل . . كان يصلى ويتلو القرآن

ويحرص على السلوك الحسن أو هكذا تصورت . وكانت أمى أحياناً تشكو منه فكنت أدافع عنه وأنا مغمضة العين . . لا أطيق أن أسمع اتهاماً يوجه إليه وكانت أمى تقدم الأدلة الكافية لاتهامه ، ولكننى لم أكن أسمعها أو أقبلها . . إن الحب أعمى كما يقولون . .

كنت فى هذه الفترة أحب أبى أكثر كثيراً من أمى . . . ووقع فى حياتى حينئذ ما حول حياتى تماماً . لم أكن أحب زوجى . كان قلبى من هذه الناحية فارغاً . والتقيت برجل أسرنى برجولته وقوته ودهشت لأننى شعرت أن قلبى يتحرك له وينبض به . . . ؟ لقد تمثلت فيه رجولة أبى أو تمثلت فيه الجنس الذى منه أبى .. . لماذا لم أحب زوجى مثلاً بدلاً من هذا الرجل ؟ . سؤال لم أستطع أن أجيب عليه، ولا أستطيع الآن . . . ربما لأن زوجى تمثل لى أول الأمر فى صورة أبى الذى كنت أكرهه . . . وربما لأنه لم يعرف كيف يعاملنى . . . كان يؤثر الجانب الجسدى على الجانب الروحى وأنا أكره الجسد . . وربما لأسباب أخرى . .

وماتت أمى ، فتركز الحب كله فى أبى. أصبحت أحبه بشكل جنونى ولو مات أبى قبل أمى لجننت . . . والآن مات خالى ، وماتت أمى ، فأصبحت طاقة الحب كلها فى قلبى موجهة إلى أبى . سهرت عشر ليال كاملة بجوار سريره حتى شفى من الصدمة التى أصابته بموت أمى . كنت أبذل له نفسى راضية . لم يكن يهمنى شىء فى الدنيا إلا هو ، إلا أن يشفى ويعيش . . .

طول عمرى لم قبل يده، ولكننى فى هذه الأيام كنت أمسك بيده ومن غير مناسبة أقربها إلى فى وأضمها وأقبلها كأننى أقبل كنز الحياة والخلود . . .

ثم وقع التطور العجيب الخطير .. بدأت أكره أبى. بدأت أرد عليه، وأكاد أقول، أشتمه . انهار المثل الأعلى فيه. عرفت بحكم اتصالى الكثير به بعد موت أمى أنه لم يكن أميناً لها ، وأنه ليس أميناً بعد وفاتها . كانت الأمانة أعظم صفة فيه . كنت أدافع عنه إذا اتهمته أمى . . والآن أشعر بذنب قاس لأننى كنت أفعل هذا . . . عرفت أن كل اتهاماتها له صحيحة . . عرفت أنه لم يكن أميناً لها فيما مضى ، وأنه ليس أميناً لها بعد أن ماتت .

انهارت الصور الجميلة كلها فى نفسى .. تدهورت الأفكار المثالية . . واختلطت فى داخلى الشرور كلها . وأصبحت أعتقد أن الدنيا كلها شر . . وكيف لا أتصور هذا والرجل الذى جعلته المثل الأعلى أراه يتدهور أمامى ويتعرى فإذا هو إنسان لا يرعى حرمة ولا يفكر إلا فى متعة نفسه .

وبدأت أكره الرجل الذى أحببته . اضطربت المقاييس كلها فى قلبى وعقلى وتفكيرى . . لا بد أنه مثل أبى، رجل غير أمين وغير صادق ، لا يفكر إلا فى شهواته وملاذه ومتعته .

كنت أجد فى هذا الحب بعض العزاء. كان حبًّا روحيا لا جسد فيه، ولكنه تدهور هو الآخر ، تحطم . . . وأصابتنى هزة خطيرة جعلتنى فى

مفترق الطرق . . وأصبح تفكيرى الآن : هل توجد فضيلة أولا توجد . ؟ هل يوجد رجل أمين أو لا يوجد ؟

وكان الجواب الذى ألح علىّ إلحاحاً أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد . . وأصبحت فى خطر شديد أن أنحرف أنا الأخرى انحرافاً كاملاً . . إن ما يعصمنا من الخطأ أنه توجدمقاييس ويوجد ناس يتبعون هذه المقاييس ، فإذا تبين لك أن أعظم من كنت تعتقد فيه أنه بعيد عن الانحراف ، منحرف شديد الانحراف ، كيف يكون تفكيرك فى الآخرين وتقديرك لهم . . . إننى فى خطر شديد . . وليس أمامى إلا واحد من طريقين ، أما أن أنقلب قديسة زاهدة متبتلة ساخطة على الدنيا وما فيها ومن عليها ، وإما أن أنقلب شيطاناً انطلق من كل القيود وحطم كل القيود ، ليس له من هم فى الدنيا إلا أن يسخر من الدنيا ، وينتقم للمثل التى عاش من أجلها والفضائل التى آمن بها .

حاول الرجل الذى أحببته أن يعيد إلىّ ثقتى بالناس وبالحب ، فسخرت منه وقلت له : أنت مثل أبى . . لابد أن تكون مثله . . تخدعنى وتخدع الناس مثل ما كان يفعل أبى فيما مضى ، ومثل ما يحاول أن يفعله الآن . .

قلت له : لا تتعب نفسك . كان كلامك فيما مضى غذاء وسحراً ، وهو الآن شوك يغز جنبى . . كنت أتأثر منه وبه فيما مضى وهو الآن لا يثير فى شعورى مثقال ذرة من تأثير . . أنت مثل كل الرجال . مثل أبى . .

والآن أنا فى دوامة .. فى حيرة ، فى قلق ، فى حزن . . هل تتصور أننى أتمنى أن يموت أبى .. أبى الذى عبدته يوماً من الأيام . . هل تتصور إننى أشعر أننى أذنبت فى حق أمى ، وأتمنى لو استطعت أن أستغفرها وأن أجثو تحت قدميها وأقول لها : حقا كنت ملاكاً . . أما أبى فهو الشيطان ، اغفرى لى أن دافعت عن الشيطان يوماً من الأيام .

لماذا علمونا أنه توجد مثل عليا .. لماذا علمونا أنه توجد فضائل وفضلاء . قل لى : هل يجب أن يكون الأب محبوباً حتى ولو لم يكن أميناً ، حتى ولو لم يكن مثلاً حسناً ، حتى ولو كان مثلاً سيئاً . . .

وأنا أيضاً أخطأت ، لأننى أحببت غير زوجى ، ولكن الله يشهد أنه كان حبا شريفاً ، لم تدنسه لمسة من جسد أو عين خائنة ، ومع ذلك فقد أفقت إلى خطيئتى وأحسست بها أقسى ما يكون الإحساس . . إننى أفكر الآن فى التكفير عنها .. وكثيراً ما شعرت كأن ما أنا فيه الآن ليس إلا تكفيراً عن هذه الخطيئة ، وإلا فما بالك بإنسانة فقدت الثقة فى كل إنسان ، فقدت الثقة حتى فى نفسها وحياتها .

* * *

ولم أستطع أن أقنعها بشىء ؟ قلت : إن الأب يجب أن يحب حتى ولو كان مخطئاً حتى ولو ركبته الذنوب من يمين ويسار . . إن الذين يحتاجون إلى الحب أكثرهم المذنبون الخطاة .. أما الأطهار الأبرار فليسوا فى حاجة كبيرة إلى الحب . . يجب أن تعطى أباك الحب . . الحب الكامل المتسامح الغفور ، فلعله يرده عما هو فيه من شر . .

قالت : هل البنت هى التى ترد الأب إلى الخير ، أم الأب هو الذى ينبغى أن يردها إلى الخير ؟ .

قلت : الأقوى هو الذى يجب أن يفعل ، سواء كان هو الأب أو الأبن أو البنت وأنت هنا الأقوى . .

سكتت وفرت من عينيها دمعة وقالت : أبى . .

كانت هذه الدمعة إيذاناً بعودة الحب . . الحب الذى لعله لم يذهب.

العاطفة الآفلة

أحست أنها تدفن شعوراً لكى تستقبل شعوراً . . كان قلبها يفرغ شيئاً فشيئاً لكى يمتلئ شيئاً فشيئاً . وأحست بضياع مر ،هل هى سعيدة أم شقية ؟ .

ما بال القلب الذى امتلأ حتى ظنت أنه لا يطيق جديداً أخذ يتسع لمكان جديد . . بل ما بال القديم يتضاءل ويتضاءل وينتزع منها انتزاعاً ، وإنها لتحاول أن تستبقيه ولكنه يذهب . . تحاول أن تظل أمينة له ، ولكنها لا تستطيع . . تحاول أن تستعيد ذكرياته فإذا بها باهتة لا تثير نبضاً ولا حنيناً . . هل هى متقلبة ضالة الشعور والإحساس ؟

هل هى من بنات الهوى يجذبها الريح الأشد ؟ . . وقاومت الطارق الجديد . قاومته بكل ما فى قلبها من حب قديم . . حاولت أن توقظه . هزت شعورها وإحساسها عله نائم ، وقد ينقذه من غفوته الرج الشديد . . وأصفاه ولكنها كانت ترج زجاجة مثقوبة كلما زادت فى رجها زاد تسرب السائل الذى يملؤها .

ولم تكن تعرف أن قلبها مثقوب وأن حبها القديم أصابه تلف ، وراحت تدافع وتدفع عنه كل شر ، ولقيت صاحبها وفى عينيها شعاع مر كله دمع وقلق .

قالت وهى تسكن إلى صدره كالحمامة المذعورة : ضمنى وضمنى ..

أيقظ هواى كما كان يوم رأيتك . أعد إلى اللهفة والشوق والخوف والغيرة . تكلم كما كنت تفعل فيما مضى . . لا أريد أن تهدأ النار المقدسة . . لا أريد أن تنطفىء الجذوة التى منحتنى أحلى ما تمنح الحياة .

ونظرت إلى عينيه . . حاولت أن ترى فيهما ما اعتادت أن تراه . وله كما هو ، حبه كما هو ، حنانه السابغ الحلو كما هو . لماذا إذن ، لا يلتقى الشعاع المنبثق من عينيه بأوتار قلبها كما كان يفعل ؟ . . إذن هى التى تغيرت ، وليس هو وأحست كأن الخناجر تندس فى جسدها من كل مكان . . أحست بالذنب يشملها من رأس وقدم . . كانت تتمنى أن تشعر أنه هو الذى تغير . كانت ترجو أن تجد تبريراً لحرارتها التى تضعف ونبضها الذى يخبؤ ونور حبها الذى يشمله الظلام ، كانت تلتمس تبريراً من سلوكه هو ، وليس من سلوكها هى .

هى إذن التى ثقبت القلب كى يتسرب منه الحب ، إنها مذنبة . . وماذا يكون مصيرها ؟ أتراها تملأ قلبها ثم تفرغه لكى تعود فتملأه .

وكرهت نفسها .

وأجهشت بالبكاء بين يديه ، وسألها : ماذا يؤلمك . . أنت التى ملأت شعاع حياتى سعادة وهناء .

ولم يكن يعرف أنه يقتلها بهذا الكلام فزاد انهمار دمعها ، وزاد احتماؤها بصدره . . التصقت به أكثر وأكثر كأن غولاً تحاول أن تأخذها منه .

وقالت له : لا تدع الدنيا تعصف بى . . دافع عنى . . دافع عن

حبي . لقد عجزت أنا عن الدفاع عنه . أنت أقوى . . كلا ، أنت لست قويا . أنك لا تستطيع أن تنسيني الناس . . لا تستطيع أن تنسيني الدنيا . . إنك ضعيف . . لا ، بل أنا الضعيفة . . أنت مذنب فى حق حبنا . . كلا ، بل أنا المذنبة ، سامحنى .

ومسحت دموعها وشملتها طمأنينة عجيبة كما لو كانت قد اعترفت للكاهن بذنبها .

ولكن الكاهن تلقى الاعتراف وسكت . . كانت تنتظر منه أن يفهم الصراع الخفى فى قلبها ، ولكنه لم يفهمه . . ظن أنها موجة من موجات الشك والخوف ، وهل الحب إلا شك وخوف ؟

وسارت الأمور كما كانت قبل أن تلقاه . ظل الثقب فى القلب كما كان وظل الحب يتسرب رويداً رويداً لكى يحل محله الشعاع الجديد . وللجديد بريقه العذب وللقديم حنينه الأصيل . . كانت المعركة بين البريق الخاطف الباهر والشعور المستقر الهادئ . وكان القلق الجديد أقوى .

وخيل لها أن صفحات الكتاب القديم تطوى صفحة صفحة . .

ونامت ذات ليلة فإذا الطارق الجديد هو هواها وتفكيرها وأملها وهناؤها . وبكت كما لم تبك من قبل . لم يكن بكاؤها جزعاً ولا خوفاً ولا لهفة ولا محاولة لاستعادة الحب القديم . . كانت دموعها رثاء له ، كانت دموع فى المأتم ، مأتم الحب الذى ذوى .

ختام أم بداية ؟

كازينو فى الإسكندرية . . البحر رقيق طويل بعيد عميق . المائدة إلى جوارى مملوءة مردحمة بالناس والكلام والنظرات والانفعالات . . عالم من الناس إلى جوارى . . كان فيهم شاب فى ميعة الصبا فيه طراوة الشباب دون أن تكون فيه رجولة الرجال . . . أنيق متناسق أكمامه قصيرة ووجهه فيه نضارة شباب غض وعيناه فيهما نظرات تائهة شاردة حالمة . . يلف سلسلة فى يده يداعبها ، شعر متموج مهدل ، أهداب مسدلة كأهداب العذارى ، وإلى جواره فتاة فى مثل سنه وفى مثل نضارته . . جمالها أقرب أن يكون جمال شباب متفجر من أن يكون جمال وجه متناسق ، فيها أنوثة باكرة وشعاع عينين يسرى منهما نداء خفى . . الشعاع كأنه لغة ، والفم كأنه نقطة فى الظلام تومض ، شفتان فيهما شوق واحتشام ، نداء واستحياء . . ربما كانت الفتاة صديقة الفتى . . لا بل لعلها مخطوبة له أو زوجته . . كان هذا واضحاً مما فى اليدين . . وإلى جوار الفتى جلس رجل قارب الخمسين ليس فى وجهه جمال ولكن فيه رجولة . . عينان فيهما تجربة عميقة . . ومأساة مستورة . . من يدرى لعلها أكثر من مأساة . . لا يمكن أن يجعل الوجه فى مثل هذا التعبير والإغراء إلا تجربة عميقة طويلة فيها مأساة بل مآس . . وليس كالمأساة شىء يجعل الوجه عميقاً والنظرة نافذة والعقل فى مثل سعة الكون . . من المآسى ما يهد الرجل ومنها ما يبنيه

ومن الرجال من تهده المأساة ومنهم من تبنيه ، كان واضحاً أن هذا الرجل بنته المأساة وجعلت فيه هذا السحر الأخاذ ، سحر الرجولة المناضلة الأبية الباهرة الانطلاق . . لست أعرف من كان هذا الرجل وما هى صلته بالفتاة والفتى . . ربما كان صديقاً لوالد الفتاة الذى كان جالساً فى مواجهته إلى جوار ابنته . . الوالد رجل حازم سعيد فى الحياة ، كما يبدو ، شغوفاً بابنته راضياً مغتبطاً إنها وخطيبها ضيوفه .. كان ينظر إليهما أحياناً فى رفق ودعاء وأحياناً أخرى — أكثر الأحيان — ينصرف عنهما إلى جار له ربما كان صديقاً أو قريباً بينهما سر أو عمل أو تجارة أو ما شئت من شئون الحياة ، كان أكثر أنساً إليه وأكثر انطلاقاً فى الحديث معه والاحتفال به . . بينما كان الرجل ذو الخمسين صاحب الوجه المحفورة فيه المأساة شديد الاهتمام بالفتاة والفتى ، لعله كان يرى فيهما صورة من شبابه . . لعله كان يرى فيهما صورة من ابنه وابنته ، لعله حرم الأولاد فهو يرقب حبهما وكأنه حبه . . . ويرقب هناءهما وكأنه هناؤه .

* * *

كانت الفتاة شديدة الإنصات إليه، دائمة النظر فى وجهه. هل تقرأ المأساة أم تعجب بها ؟ هل تسأله سر رجولته أم أن رجولته المكتومة الجريحة بهرتها . . . هل تمنت أن يصبح فتاها يوماً من الأيام فى مثل صرامة هذا الرجل وسكونه ووقاره ؟ كانت كلها آذان مصغية إليه كأنما تسمع همس قلبه وخفق وجدانه . . . تسأله وتسأله ولا تكف عن توجيه السؤال إليه وتلقى الجواب منه .. أما فتاها فقد رجع إلى وراء الصورة . .

ترى ماذا دار بخلد الفتاة حينئذ ؟ هل أرادت أن تأخذ من ضوء هذه التجربة بعض القوة فى الحياة . . . أرادت أن تستشف من تاريخ الرجل بعض ما يهديها فى صحراء الأيام المقبلة .. كان الرجل أمامها كتاباً ضخماً قويا مثيراً وكان فتاها أمامها جزءاً من كتاب صغير تكاد تعرف كل شىء فيه . . ليس هناك سر ولا خوف ولا قلق ولا مأساة . . حياة صغيرة لا يزال صاحبها على الشاطئ . . أما هذا الرجل الذى خاض الموج واصطلى بالنار وشرب المر والحلو . . وعاش الخير والشر ماذا فى كتابه الضخم ترى ما وراءه من مغامرات ؟ ماذا فى حياته من نجاح و إخفاق ؟

* * *

وأدرك الرجل ما فى صوته من سحر ، هل كان السحر فى حديثه أم فى صوته أم فى هذا العمق العميق الذى يصدر عنه الحديث والصوت ؟ كان فى حياته كلها ، كان فى سنوات عمره الطويلة وما حفلت به من تجارب وما عاش فيه من مأساة أو ملهاة . . كانت الفتاة أمامه زهرة صغيرة جميلة ليست فيها تجربة تستهويه وهل صاحب التجارب فى حاجة إلى تجارب تستهويه؟ لقد فرغ منها وشبع . إنه فى حاجة إلى زهرة جميلة صافية أنيقة يشمها ويحس بعطرها ونمائها .

وضاق الفتى بما أسرفت فيه فتاته من التفاتها إلى هذا الكهل العجيب . هل يمكن أن تستهوى الكهولة فتاة فى ميعة الصبا . . . وكذب عينيه ولكن الفتاة ظلت على موقفها من الرجل واحتفالها به وانطلاقها معه .

وأراد الرجل أن يطفئ سيجارته . . فرغ ما فيها من دخان استنشقه مع

عطر الفتاة الجميلة التي جعلت حديثه أعمق مما هو وتجربته أروع مما هي وجعلت وجهه يشرق بما لم يشرق به من سنين ومد يده لكي يطفئ السيجارة في الطقطوقة الموضوعة على مقربة من الفتاة ، وفي الوقت نفسه كانت الفتاة تتهيأ لإلقاء ورقة فارغة كانت فيها بعض الحلوى ومست أصابعها وهي تضع الورقة في الطقطوقة أصابع الرجل بينما كان يلقي بالسيجارة المحترقة .

* * *

هل كانت مصادفة أم تدبيراً ؟ هل كانت مجرد رغبة أن تمس يد الرجل الذي سحرها حديثه وسحرتها رجولته .. وما خطب الشاب الصغير الجالس إلى جواره .. إنها في مثل سنه ، ترى هل رأت فيه ميوعة وخفة وضآلة ووجدت في الكهل العميق الصارم المبتسم رجولة واتزاناً وضخامة . هل قارنت بين فتاها وبين الكهل فرجحت كفة الكهولة على كفة الشباب ، أم أنها لم توازن ، وكل ما في الأمر أنها رأت في الرجل المكتمل صورة فتاها حينما يكتمل ، فذهبت بخيالها تستعجل السنين لكي ترى خطوطها العميقة على وجه الفتى الذي اختارته الأقدار زوجاً لها ..

هل الأقدار هي التي اختارته ، أم أن ما بينها وبينه حب ؟ إنها لتزعم هذا وأنه ليزعم هذا ، ولكن مالها ارتجفت واضطربت وهي تسمع حديث هذا الرجل . . . مالها أحست أن فتاها بالنسبة له طفل غرير . . . وهي أليست طفلة أيضاً . ربما كانت في السن ولكن من يدري لعلها بالعقل عميقة بعيدة الغور لا يستهويها إلا عقل قوي ناضج تشعر في ظله بالضآلة

الجميلة والحنان القوى . .

ونهض الجميع . وسلم الأب واصطحب العروسين وانصرف بينما سلم الرجل على العروسين وانطلق بعدهما ... والتفتت العروس وراءها للرجل فحياها بابتسامة فيها شبه اعتذار وأسى . . . إنه يعرف أنه حطام رجل يسير إلى المغيب وهى نجم مشرق يسير إلى سمت السماء ..

* * *

ولاح للكهل المحب مدى الفرق البعيد . . وبعد أن كان متهيئاً للخروج ، عاد وجلس حيث كان يجلس ، والمائدة حواله فارغة ووضع رأسه بين يديه وراح يفكر ويتأمل . .

هل انتهى كل شىء مع انتهاء السيجارة التى انطفأت أم أن لهذه القصة بقية .

مغيب وإشراق

توفى زوجها ، فلبست الحداد . كان ذلك منذ عشرة أشهر .

الدنيا المظلمة ، اليأس القاتل ، الموت والحياة يتساويان أمام ناظريها ، لماذا نعيش وكيف نعيش بعد أعزائنا؟ إن الحياة ليست إلا الصحبة الجميلة والأرواح المتلاقية والأفئدة التى يفهم بعضها بعضاً ، وإذا خلت من ذلك لم يصبح لها طعم . الموت إذن هو العلاج .

وقرأت عن الموت ما لم تكن قد قرأته من قبل . وتولتها صوفية عجيبة . إذا رأت الناس يكدحون ويجرون تبسمت ساخرة وقالت - ليتهم يعلمون من أمر الموت والحياة ما أعلم .

حجبت نفسها عن المسرات ، وكتمت فى قلبها الألم الذى فى الدنيا كله ، وخيل إليها أن الحكمة التى تطلع على الناس ، وهم فى الظل بين الموت والحياة ، قد طلعت عليها .

الظل بين الموت والحياة ، إنها تعيش فيه ، هذا الخط العجيب الذى لا مسرة فيه ولا طموح ، لا خوف ولا طمأنينة ولا اهتمام ولا أسى ، بماذا نهتم وعلى أى شىء نأسى ؟ زوجها مات ، الرجل الذى اعتمدت عليه تركها وذهب . العصا السحرية التى كانت تتوكأ عليها انكسرت . قلبها انكسر ، روحها المشتعلة انطفأت . ماذا بقى لكى تقول إنها ماتت ؟ لم يبق إلا القبر وهى تعيش فيه . .

وانعزلت عن العالم بين ذكريات زوجها . هنا كان يقرأ ، على هذه العتبة ضمها بين جناحيه . فى هذا المخدع قضت أسعد لياليها . وهذه الحديقة المحيطة ببيتها كانت فى عرائس أحلامها ، اعتادت أن تستقبل مع صباحها خيوط الذهب وزوجها نائم ، وأن تستقبل مغيب الشمس كل يوم وهو بين أحضانها ثم يلفها الليل فى صمته . . ويلفهما الحب فى حنانه

وبكت عند كل مشرق وعند كل مغيب ، وملأت وسادتها الدموع

أطفأت الشموع والمواقد وانسحب سواد الليل على بياض النهار . وماذا يعنيها من الليل والنهار ؟ كان زوجها هو الساعة والميقات . ترقب انحدار الشمس لأنه هنا يأتى وترقب إشراقها لأنه هنا يذهب ولكنه ذهب ولن يعود فاستوى لديها أن تشرق الشمس أو تغيب .

كانت متعتها القراءة والسفر والنظر فى الكون والناس فلم تعد تحب أن تقرأ أو تسافر أو تنظر فى الكون أو فى الناس . كانت تحيا هذا كله بعينى الرجل الذى اختارته لكى يكون رفيق الحياة ، وها هو قد تعجل السفر فغير المقام . وألحت عليها فكرة ظلت تتضخم وتتضخم . . . . إنه يدعوها إلى السماء فلماذا تتريث ؟ إن صوتاً يهمس فى أذنها وكأنه القدر يقول لها : ألا تسمعين؟

* * *

واستيقظت ذات يوم ولأول مرة منذ وفاة زوجها ، أحسست فى نفسها رغبة فى أن ترقب مشرق الشمس ، وفتحت نافذتها ، واستقبلها مع الصباح نسيم بارد ندى ، ولأول مرة أحست همساً رقيقاً وشملتها طمأنينة عجيبة ،

وتأملت الشمس وهى تبزغ من وراء الأفق خلال الشجر واستغرقها هذا الجمال الساحر ، وكأنه ميلاد أمل ، ميلاد حياة ، وجفلت وأقفلت النافذة ، وارتمت على فراشها تبكى واستغفرت زوجها مما أثمت.

واستعاذت من شر هذه الطمأنينة . وفى هذه الليلة قرأت لأول مرة عن موضوع آخر غير الموت والحياة بعد الموت ، كانت خلاصة القصة أن الوقت هو أحسن عزاء وأن مرور الزمن هو البلسم الذى يشفى كل الأحزان واستقرت عيناها عند عبارة تقول « إن الحياة أقوى من الموت وأن إرادة الحياة تقهر الموت » .

وأطبقت الكتاب ، وطفقت تتأمل هذا الكلام ، واستغرقت فى النوم وفى قلبها صراع مر وفى فؤادها أسى قاتل ، هل يمكن ؟ هذا مستحيل ، كلا . كلا .

ومرت الأيام وبدأت تستقبل الناس ، وافتر ثغرها من الابتسام ، واعتنت بهندامها وصففت شعرها ، ووقفت أمام المرآة ، وأنكرت هذا الذى تصنعه ولكنها لم تتوقف استمرت فى زينتها ، ضعف الصراع ، انتصرت الحياة .

فتحت بيتها ، فتحت نوافذه . بدأت الأشجار فى الحديقة تهتز والنسيم يداعبها . بدأت ترقب مشرق الشمس كل يوم ، وترقب مغيبها كل يوم ، حتى إذا أقبل الليل ، أوت إلى فراشها واستغرقت فى النوم والأحلام .

وحام حولها الرجال .

جهالة الرجال

فتاة بارعة الجمال مثقفة أمينة هادئة هائمة فى الأحلام، تزوجت رجلاً من رجال الأعمال موفقاً موفور الحظ والنجاح . ملأ حياتها ثروة ومتاعاً . . فساتين وجواهر وسفر إلى الخارج وخدم وسيارات وحفلات . ومرت الأيام فرحت الفتاة أول الأمر بهذه المظاهر أو شغلتها فترة من الوقت . وأنجبت طفلة فازدادت مشغوليتها ووضعت فيها كل حنانها وأحلامها .

وكانت الزوجة تحاول أن تصرف زوجها بعض الشىء عما هو مندفع إليه من جمع المال ، ملأت بيتها بكل أنواع الموسيقى ولكن زوجها لم يكن يستطيب السماع إلى عزفها . كان مشغولاً دائماً بمشروعاته . لا حديث له إلا هذه الصفقة وكم ربحت ، وهذه الصفقة وكم تكلفت . لم يكن بخيلاً ولا محبا للمال ، ولكنه كان كريماً محبا للنجاح . المال عنده رمز التفوق والقدرة والكفاية . كان يسعده أن ينجح لا لأنه سيزيد ما لديه من مال ، ولكن لأنه سيزيد ما حققه من نجاح .

ومرت الأيام ، وفراغ القلب يرعب الزوجة . كانت تحب زوجها ولكنه لم يكن يشعر بهذا الحب أو يشعر به ولا يغذيه . كان واثقاً من أمانتها وإخلاصها ولعله كان يردد بينه وبين نفسه « إننى ألبى كل مطالبها. ما من شىء ينقصها» ولكنه لم يكن يعرف عمق الفراغ الذى شتت أفكارها وجعلها تأوى إلى فراشها كم من ليال باكية موجوعة الفؤاد .

وحام حولها الرجال فإن أنوفهم تشم بمهارة كما يشم الصياد رائحة الفريسة . وأكثر الذين حاموا حولها كانوا من معارف زوجها وأصدقائه وممن يغشون حفلاته أو يشتركون معه فى مشروعاته وأعماله فكانت تردهم فى رفق حتى لا تثير زوبعة فى بيت هادئ ، وإن كان ميتاً . ورضيت بقسمتها ودفنت أحلامها فى مهدها ، وكتمت أساها ودموعها وبدت كأنها زوجة سعيدة تعيش بهواها فى بهر النجاح الذى يحالف زوجها وكأنهما صديقان لا يفترقان .

ثم وقعت الكرثة التى كانت تتحاشاها .

استعصى عليها أن ترد صائداً ماهراً من صائدى النساء . كان شابا يصغرها بأعوام . لمحت فى عينيه بريقاً عجيباً ، وفى صوته دفئاً يهز كيانها هزا . واستعاذت من الشيطان وهربت من كل مكان تلقاه فيه . وغضت من بصرها حتى لا تلتقى بنظراته ، ولكنه كان قريباً من بيتها أثيراً لدى زوجها فهو ابن أحد أصدقائه وشركائه فى عمله . وكانت السن قد تقدمت بها فأضحت تطرق أبواب الأربعين ، فضجت أنوثتها حتى أضحت نداء عميقاً ، تحاول إخفاءه فلا تستطيع ، وكأنما أحلام حبها التى ظلت فى ستر بين مخدعها ونفسها بدأت تتنفس ، وراعها أن تشعر بضعف نحو شاب يصغرها بهذا العدد الكبير من الأعوام ، وأوت إلى ربها تسأله المعونة وتصلى وفى قلبها نار تتلظى .

وكان الشاب يكاد يجن بها ، حديثه ، نظراته ، حركاته ، تلميحاته ، تخايله على الانفراد بها . . . وكانت تتغاضى عنه وتهرب منه مرتاعة وتتحاماه كأنه

وباء وفى داخلها صوت كئيب كأنه فحيح الأفاعى يقول لها، أنت جاهلة حمقاء . لقد أرقت دماء شبابك وأضعت أحلى سنوات عمرك دون أن تحسى لهيب العاطفة المشتعل .. لا تجبنى، لا تخافى . . . ثروة ، فساتين ، جواهر ، سيارات ، حفلات . . هل أنت دمية ، إنك امرأة ، حياتك فى قلبك وعاطفتك .

وكان الصوت يرتفع أحياناً فى داخلها حتى لكأنه طنين صاخب مجاجل فتخرج من وحدتها إلى الناس وتندفع فى المجتمعات تضحك وتقهقه ، من ينظر إليها يشعر أنها أسعد امرأة فى الوجود ومن يعرفها يدرك أنها أشقى امرأة فى الوجود .

* * *

وكانت ليلة أقام فيها زوجها حفلة ساهرة جمعت رجال الأعمال والسياسة والأدب والصحافة وأشرقت فيها زوجته بكل أنوثتها وجمالها وأساها ونظراتها الحائرة القلقة . كانت حيثما سارت تتابعها أعين نهمة ، أخفت نهمها وراء ستار من أدب الحديث والمجاملة . ولم تكن تخشى هذه العيون جميعاً. كانت بالنسبة لها رعية وهى الملكة . . إنما كانت تخشى عين رجل واحد كانت تلاحقها وكأنها صخب صاخب ونداء صامت . ترقبها وكأنها تأسرها ، تبتعد عنها وكأنها تقترب إليها . . تهرب منها وشعاعها فى قلبها وكيانها . . .

وانتهز الشاب فرصة استطاع أن ينفرد فيها بالمرأة المرتاعة الملتاعة، وكساها الخوف والقلق واللهفة والإيمان والخطو الخفى الرهيب نحو الخطيئة

جمالاً ساحراً وعذوبة آسرة . . . كانت كالطير الجارح ،وقد انكسر جناحه فهو ينزل من سمائه إلى أرض يعرف أنه فيها فريسة ضائعة .

قال : سيجارة

قالت : أنت تعرف أنى لا أدخن . .

قال : إنى لا أعرف عنك شيئاً ، أنت لغز محير . .

قالت : ولم تستطع حله

قال : تمنيت أن أفعل ، ولكنك تزدادين كل يوم غموضاً .

قالت : أنا نفسى ، لا أعرف نفسى .

قال : وهاتان العينان اللتان لم أر لسحرهما مثيلاً . . ألا تدلانك على نفسك ؟

قالت : أنت تبالغ . . . (وبلعت ريقها الذى جف وتماسكت وهى تكاد تتهاوى)

قال : انظرى فيهما وأنت تعرفين نفسك، تعرفين كيف تنفذين إلى القلوب . انظرى إلى ما فيهما من شعاع . إنهما وحدهما عالم. من الفتنة والسحر والجمال والأسر ، أنت ظالمة . .

قالت : كفى . . كفى . . دعنا نندمج فى الناس . لا بد أن أحييهم إنهم ضيوفى .

قال : إنك تهربين منى . . إنى لا أعرف . . أعرف . . أعرف كل شىء .

ارتاعت . . كانت نبرة صوته قوية خافتة ، وكأنها يد تنزع

ملابسها عن جسدها ، أحست أنها عارية تماماً ، وأن كل ما تخفيه قد انكشف أمامه .

قالت : إنك تخرف . . أنت لا تزال قليل التجربة . . ولماذا أهرب منك ، أنت مثل ابنى .

قهقه الشاب ضاحكاً وقال: هذا ما تقولينه . ولكن ما تحسينه شىء آخر إنى لأعرف . . أعرف . . لن أدعك تفلتين منى . أنت هواى وأحلامى وسرى ونجواى. . أنت كل شىء لى فى الوجود . .

وارتاحت أذنها لهذه العبارات، وأوشكت أن تغمض عينيها وكأنها تقول له ، لا تكف عن الكلام . . استمر . . استمر . ولكنها ارتجفت وصرخت بصوت مبحوح : اسكت . . أسكت . . أنت وقح . . اذهب عنى . سأقول لزوجى كل شىء . .

أجاب فى ابتسامة كلها ثقة وطمأنينة : لن تقولى له شيئاً. إنى أعرف . . أعرف .

* * *

وكانت ليلة حاسمة قضت ما بقى منها فى فراشها تئن وتتوجع وتسائل نفسها ماذا يكون المصير ؟ وقالت: سأقول لزوجى يجب أن يمنع هذا الفتى عن المجىء إلى بيتى . . لا بد . لا بد .

وأصبح الصباح ، ولكنها لم تقل شيئاً . استرجعت ما حدث أمس . وأحست برجفة رقيقة جميلة وتبسمت.

ومرت الأيام، ثم وقعت كارثة أخرى . تقدم الشاب لخطبة ابنتها ،

وثارت تقول لزوجها : لا يمكن أن أوافق على هذا .

قال الرجل : ولكنه شاب ناجح موفق متعلم ، طيب الخلق ، أبوه صديقنا وشريكنا . وقد سألت ابنتى فوافقت ورحبت . . إنها تحبه . . تحبه . . أنا واثق من ذلك .

وهوت المرأة المتعالية بين يدى زوجها تنتحب كطفلة . واحتار الرجل ماذا يصنع وحسب أنها تبكى لأنها لا تريد فراق ابنتها الوحيدة ، فوضع يداً حانية على كتفها وقال : انهضى يا عزيزتى . ستقيم ابنتك وزوجها معنا . .

وازداد نشيجها وصرخت . كلا . . كلا . . هذا لن يكون . . أو تدخل النار إلى بيتى . . ارحمنى . . ارحمنى . أنت لا تعرف . .

هز الرجل رأسه فى ابتسامة وقال : بل أعرف . إنه حبك لابنتك . . لا تريدين أن يشاركك أحد فيه . .

صرخت : يا للجهالة . . جهالة الرجال ، إنكم تعرفون فقط كيف تجمعون المال .

مات رجل وجن رجل

شهدت فيلم « آخر الفضائح » ولم أذهب إليه لأنني مغرم بالفضائح ولكن لأن فيه — كما عرفت — تحليلاً لعاطفة من العواطف العميقة التى تنشأ فى صمت عجيب وتعيش مع الإنسان ، وكأنها جزء من كيانه . ولعلنى عرفت فى الحياة أعظم منها ، ولكن للشاشة سحرها. والقصة فيها تكون معروضة أمامك من أولها إلى آخرها، ترجك رجا عنيفاً ، وتكاد تحبس أنفاسك حبساً ، فإذا بك مبهور ، متلاحق النبض ، مأخوذ وكأنك تعيش مع الأبطال، وتقاسمهم الهناء والشقاء .

فتاة بكر العواطف . فيها جمال ساحر كجمال الندى ، وانطلاق آسر كانبثاق الفجر ، وسلام نفس وقلب كأنها زهرة تداعبها النسائم . . لم تكد تبلغ العشرين فلها ، عدا الجمال، بكور الحياة فى أصباحها المتفتح للهوى والحب والهناء . .

التقت برجل أشرف على الستين أوجاوزها . له زوج وأولاد وحياة طويلة من الكفاح والنصر ، وفيه قوة رجولة نضجت ومالت إلى المغيب وكأنها تتكسر على شاطئ صلب ، فهى تقترب منه فى بطء عجيب . . والله وحده يعلم كيف انطلق الشعاع من قلب الطفلة الغريرة إلى قلب الرجل المفعم بالهزائم والانتصارات . . . الله وحده يعلم كيف اجتمع المشرق بالمغيب . وكيف انسجمت ابنة العشرين ، فرأت فى كهل يخطو إلى

الستين فارس الأحلام الحبيب .

ونظرت إليه بعينين فيهما الضراعة والنداء ، وانتفض الرجل وتولاه رعب عميق . . وكأنه يسأل نفسه : هل هذا ممكن ؟ . . كلا . كلا . .

ولكن نداء العينين كان أقوى من المنطق والعقل . . كان انبعاث وجدان وقلب وشعور ، وهو . . أتراه أشفق عليها ؟ أتراه أحبها ؟

لم يكن يستطيع الإشفاق . كان الحب . ولم يسعه إلا أن يقترب منها . ووضع فمه على فمها وقبلها فى لهفة وعنف ولكن فى حنان وحب أعمق من اللهفة والعنف ، وكأنه أودع فيها سحر رجولته وتجربته ، وجماع ما كسب فى الدنيا من نصر وفخر . . وتلقت الفتاة القبلة الهادئة الرقيقة وكأنها أعصار هزها هزا . . وانفرجت شفتاها فى نداء أعجب وكأنها تقول له « مرة أخرى يا مولاى . . يا حبيبى يا أبى ، يا فارس أحلامى . . يا دنياى كلها »

وأوشك الرجل أن يستجيب لها ، ولكنه كف نفسه تحت ثقل السنين وكأنه يقول لنفسه كيف يلتقى المغيب بهذا المشرق الجميل ؟

ونهرها بل قسا عليها . . اتخذ دور الأب . وكان منذ لحظة فى دور الحبيب ، وقال لها : هيا انصرفى . . . لا تعودى إلى ثانية ، . إياك أن تفعلى .

ولكنها لم تستطع إلا أن تفعل . استولى عليها وكأنه ساحر . ولم يجد الرجل إلا أن ينقذ نفسه منها وينقذها من نفسها فأودعها مدرسة داخلية فى ضاحية بعيدة عنه . وقال لها : ستعيشين هنا ، ستتعلمين ، ستصبحين

زوجة وأما . . . اتركى حياة المسارح والرقص . . . لا أريدها لك .

وتولى عنها وكان يترك معها نفسه وقلبه ، وانصرفت الفتاة إلى صاحباتها تائهة اللب موزعة النظرات. وخيل إليها كأن المدرسة الراقية الجميلة سجن قاتم ، واصطلح عليها السقم والمرض .

قال الطبيب : ليس بها من علة . . وتهالكت والوقت نصف الليل والسكون شامل والأرق يعذبها . وذهبت تطلب رقم تليفونه ، ورد عليها صوت يقول : إن هذا الرقم تغير . . . الرجل الذى تطلبينه لا نعرف رقمه الجديد .

وصرخت كأن أمواج المحيط تبتلعها وقالت وهى مخنوقة : غير رقم تليفونه . .

وهجرت مدرستها . فرت منها كالمجنونة والتقت بشاب غنى عرض عليها الزواج والسفر إلى أوربا . . وسافرت ورأت أجواء جديدة . وفوق جبال الألب والثلج الأبيض يتوج القمم ، والصوت يدوى فى الفضاء كأنه دعاء إلى السماء قال لها الشاب : هل توافقين على الزواج منى ؟ فرفعت عينين مبللتين بالدمع والريح يصفر والثلج منثور والدنيا من حولها فضاء وما من حجاب بينها وبين السماء وقالت : دعنى أفكر .

وعادا إلى أمريكا . وفى الطريق بين ردهات القطار المنطلق فى جنون كأنه الغيب النازل ، قالت له : أتزوجك .

وأقام الزوجان فى بيت أنيق . فيه ثروة وذوق وجمال ، ولكن ليس فيه حب . واستبدت بالشاب غمرة قاتلة ، وغذبها بشكه . وفسر كل حركة

بأنها عودة إلى هواها القديم . قالت له : إننى لن أقابله لقد انتهى كل شىء .

وذهبا ذات ليلة إلى أحد الملاهى. الزوجان على مائدة ومعهما بعض الأصدقاء . . وجاء الرجل الكهل ولمحته الفتاة ودارت برأسها معه ، وتملكها وجوم فيه كبت وعذوبة وعذاب وصبر .

وقالت : أريد أن أنصرف ، فقال زوجها : بل تبقين . .

وأصرت فنهض معها . وساعدها فى ارتداء معطفها ، وتركها فى صحبة بعض أصدقائه وعاد إلى الصالة يسير فيها ثابتاً أو مجنوناً مستقر الخطى ثائر الوجدان ، حتى إذا وصل إلى مائدة الرجل أخرج مسدسه وأفرغ فى دماغه الرصاص وكانت مفاجأة أذهلت الحاضرين ، فانصرفوا فى رعب وهلع ، بينما صرخ الشاب فى وسط القاعة الخالية والمسدس فى يده : لقد قتلت هذا الرجل لأنه أفسد زوجتى .

وطغى رجع الصدى ، وكأنه حكم على حب باليتم وعلى زوجة بالترمل .

وحوكم الشاب وبرأه المحلفون ، ولكنهم قرروا أنه مجنون . وسيق إلى مستشفى الأمراض العقلية بينما عادت هى إلى حياة الملاهى ترقص وفى قلبها حزن وفى عينيها غموض شبيه بغموض القدر .

وقال متعهد حفلاتها وهو يعلن عنها : ستشاهدون رقصات المرأة التى مات من أجلها رجل وجن رجل . . .

هل أنا الصانعة ؟

سألت نفسها وهى فى شبه غفوة: إلى متى سيظل حبى فى الظلام ؟ ضقت بالكتمان . فيض السرور الذى يشملنى أحب أن أعلنه للناس ، فيض الحزن الذى يكاد يقتلنى أحب أن أعلنه للناس . . أو كتب على أن أفرح، إذا فرحت ، فى سر من الناس ، وإذا حزنت ففى سر منهم أيضاً . . . إن بريق عينى أحياناً يبهر زميلاتى . . يطلن النظر فيهما . . . سألتنى واحدة منهن ذات يوم : أنت سعيدة؟أجبت : أسعدمخلوقة فى الدنيا ؟ . .

قالت : تحبين . . .

وسكت لحظة ولم أعرف كيف أجيب ثم قلت منكرة أشد الإنكار : لا . . . لا . . . حب أيه . .

ولم تصدق صاحبتى . . قالت : هذا البريق لا ينسج شعاعه إلا الحب . .

سألتها : أو تعرفينه ؟ هل أحببت ؟

أجابت فى بساطة : لا أستطيع أن أعيش من غير حب . .

— وتعلنينه لكل الناس . . .

فنظرت إلى دهشة وقالت : وما شأن الناس بحبى ؟

— تحبين فى الظلام ؟

ــ الحب عالم كامل . ليس فى حاجة إلى عوالم أخرى . فيه النور والظلام الهناء والشقاء . . . فيه كل شىء ، إنه حياة متكاملة .

ــ ألم تشعرى ذات مرة أنك فى حاجة إلى أن تعلنى للناس حبك ؟

ــ وما حاجتى إلى أن أعلنه لهم ؟ . . إن شعورى بالحب يجعلنى أحب كل الناس . . . وهذا هو الإعلان . .

وعند هذا الحد افاقت من غفوتها ، ثم نهضت ترتب شعرها وتغنى وجلست إلى كراستها وكتبت « كل الكائنات الحية تنعشها الشمس والنور الحب أيضاً لكى يعيش فى حاجة إلى الشمس والنور . إن الظلام يقتله » .

وتوقفت لحظة ثم سألت نفسها ، كيف أحببته ، ولماذا هو دون الناس كلهم . . لماذا إذا حدثته اضطرب قلبى ، وإذا سمعته يتحدث شعرت أنه يتحدث لى وحدى كأننى أنا وحيه وملهمته ؟ . . أراه فى ضوء القمر وحفيف الشجر وسكون الليل . . . هو . . . وحده . . لماذا ؟ هل أستطيع أن أقول لأمى إننى أحبه؟ هل أستطيع أن أقول لأبى ؟ هل أستطيع أن أقول للناس إننى أحبه ؟ . . كلا . لا أستطيع . . لا بد أنه عمل غير لائق لا يجوز أن أقدم عليه وإلا لاستطعت أن أفضى به إلى الناس . . ولكن لماذا هو عمل سيىء ؟

وأرادت أن تسجل هذه الخواطر ولكنها توقفت . . . حتى الكتابة فيه ممنوعة . لا مكان له فى غير القلب « إنه المستودع الوحيد الذى أشعر بالاطمئنان وأنا أتحدث إليه

إننى أعيش هنا وكل ما عدا ذلك كذب . أعيش فى هذا البيت وأنا

غريبة عنه ... سألتنى أمى أمس لماذا أنت مكتئبة ؟ هل تحسين بالصداع ؟ أنا عارفة إن صحتك ضعيفة . . . أنت مهملة .

« وكان لا بد أن أعترف بأننى مهملة و بأن صحتى ضعيفة و بأنى أشعر بالصداع . . . وكان هذا كذباً آخر.

سمعت أبى يقول أمام ضيوف كثيرين إنه يكره شخصاً بالذات واسرف فى ذمه والتشهير به وأعلن اسمه صراحة .. إن أبى لا يكف عن إعلان هذا أمام كل الناس .. الكراهية يمكن أن تعلن ، أما الحب فيجب أن يعيش فى الظلام .

ولكن هل هو يعيش فى الظلام . إن صاحبتى قالت لى إن الحب عالم وحده ، حياة مستقلة متكاملة يمكن أن يعيش . . . منعزلاً عن الدنيا . يمكن أن ينمو لأن شمسه منه . . كيانه منطو فيه ، حيويته تنبع من ذاته ، ليس فى حاجة إلى شىء آخر خارج عنه . عواطف الدنيا مركزة فيه ، هناؤها وشقاؤها ، نورها وظلامها . . كل شىء هنا فى هذا القلب .

ما حاجتى إلى الإعلان ؟

ولكننى كى لا أعلنه لا بد أن أكذب وأنافق وأضلل . . . كل الرذائل التى كنت اضيق بها أول الأمر ، ثم أصبحت لطول الممارسة وكأنى لا أستنكرها .

هل الحب هو المسئول ، أم أن الذين يمنعوننى من أن أعلنه هم المسئولون ؟

إذا كنت أنا المسئولة ، فهل أنا صانعة هذا القلب ؟

الملاك ينزل إلى الأرض

أحسست أن شخصيتها تنفلق إلى شخصيتين. أنكرت منهما امرأة ثائرة متمردة بدأت تنمو بين جنبيها كأنها جنين لا تعرفه . . من أين بذوره ؟ من أين نطفته؟ من أى العوالم جاءها؟ وقاومته. . . وقاومتها ، هذه المرأة الجديدة التى بدأت تدخل حياتها لكى تهمس لها دائماً بالخطيئة والشر والذنب . . إذا سكنت الحركة حولها وأوت إلى فراشها ، أخذت هذه المرأة المتمردة توسوس لها : أنت تعيشين . . كلا أنت تقتلين نفسك . . هل تستطيعين أن تقولى لى لماذا تعيشين ؟ للحب . . كلا ، أنت لا تحبين تأكلين وتشربين كالأنعام لا أكثر ولا أقل . . الأضواء . . المباهج ، الدنيا التى تدور وكأنها طاحونة من بلور ماحظك منها ؟ . . افتحى الراديو إلى جوارك ، اسمعى الموسيقى الحالمة .. أديرى المفتاح تسمعى صخباً وضجيجاً وضحكاً وحياة . . وأنت أنت ..هنا فى هذا الفراش البارد ، فى هذا الضوء الخافت دون صوت هامس يبثك حبه ونجواه . .

وتتململ المرأة وتضىء النور وتهرع إلى كتاب تقرأه ، ولكن رنين الصوت الخفى لا يكف . أنت تقرئين ؟ يا للجاهلة الضائعة . . حكمة تنشدين ؟ لقد قرأت عشرات الكتب ، لا عمل لك إلا أن تقرئى؟ ماذا كسبت ؟

وأحست كأنها ترد: ولكن القراءة متعة . . إنها غاية ، أنا أشعر بالهناء

والسعادة حينما أقرأ . . الكتاب صديق وحبيب . . الكتاب كل شيء . .

ـــ أوهام يا صاحبتي؟ إذا أطبقته ارتددت إلى وحدتك وبرود حياتك وضممت ذراعيك على لا شيء . .

ـــ بل ضممت أحلامى على كل شيء .

ـــ أوهام مرة أخرى يا صاحبتى .. لو أخذ كل الناس بفلسفتك، لأقفرت الدنيا . . أجدبت من الموسيقى والحب والوله والخوف والقلق والصبر والجزع وفرحة الانطلاق التى لا تبارى .

ـــ كل هذا أحس به ، إن لى عالمى الذى لا يشاركنى فيه أحد . . إننى اتكلم معه كما لو كان حقيقة موجودة . أغضب منه وأرضى عنه . . أصده ثم أرتمى فى أحضانه . . أكرهه وأحبه . .

ـــ عمن تتحدثين . . يا للمسكينة ؟ . فارس أحلامك . . . من القصص والروايات .

وتشعر كأن المرأة الشريرة فى نفسها تضحك وتقهقه . كتب وقصص وفارس أحلام مصنوع فى الخيال . .

وتنهض من فراشها وترمى كتابها وتنتفض وهى تسير فى غرفتها ذهاباً وإياباً وتتحدث بصوت عال : كلا ، لن أسمع لوسوسة الشيطان . .

ـــ كلا أنا لست الشيطان . أنا المرأة الحقيقية فيك .. إن كل ما تضعينه على وجهك مما يراك الناس به ليس حقيقتك . . أنت لست فاضلة كما تظهرين أمام الناس . . أنت ممثلة بارعة . . أناهو أنت..لقد قتلتنى ثلاثين سنة . . انتصرت على هذا العمر الطويل دون أن أنشب أظافرى

فيك . . دون أن أفرض نفسي عليك . . أنت أنا ؟ . .

وتصرخ المرأة : كلا أنت لست أنا . . أنا هو أنا . .

وتقهقه الشيطانة التي في داخلها : مخدوعة . . انظري إلى المرآة . . اخلعي عنك نظرة البراءة والعبط ، نظرة المرأة الساذجة . .لطول ما ارتديتها أصبحت لا تستطيعين نزعها . . ولكنك الآن والليل صاف وكل ما فيك لا حاجة به إلى الاستخفاء والخوف ، تستطعين أن تنزعيها . . انزعيها . . كفاك خداعاً لنفسك وللناس . .

ويروع المرأة وهي تتطلع إلى المرآة أن نظرتها البريئة الساذجة تتسلل من شعاع عينيها وابتسام شفتيها ، وتحل محلها نظرة فيها توهج رقيق متكسر وتشعر في جسدها بدبيب فيه مثل هذا التوهج والتكسر وترتمي على فراشها على حين تقهقه الشيطانة التي في داخلها : هذا هو أنت . . . أنت امرأة كسائر الناس . . لست قديسة كما تزعمين ، لست من نور كما تتوهمين ، أنت ماء وطين . .

وتتندى عيناها بالدمع وهي تشعر بثقل المعركة التي تخوضها وتسكت.. وتشعر أنها انهزمت وأنها أيضاً جسد كما أنها روح . . كانت تنكر على الناس ما يقولون .. كانت تتحداهم وتقول إنها تستطيع أن تحتقر الجسد . لم تعرفه قبل أن تتزوج ولم تعرفه بعد أن تزوجت . . وها هي ذا الآن امرأة كباقي النساء . . وبكت .. شعرت بمهانة . .

وضحكت الشيطانة التي فيها : تبكين أيتها التعسة . . وكان أجدر بك أن تفرحي ؟ . . لقد قتلت في نفسك المرأة ثلاثين عاماً حتى لقد

ظننت أنك هكذا خلقت .. شيئاً ممتازاً رقيقاً عظيماً لا يتمرغ فى الجسد الذى يتمرغ فيه الناس ولا يشعر بالقلق الذى يشعرون به . . . انهضى وانظرى مرة أخرى فى المرآة . . لماذا تهربين منها .. انظرى إلى الوهج الذى شملك، إلى الشعاع كأنه رداء سحرى . . أنت دمية ، فيك تراب آدم وحواء . .

وتصرخ وهى تنهض إلى المرآة : كلا. لا أريد . . لا أريد . .

وتنظر فى المرآة ويروعها سحر الجمال الذى يشع من عينيها وسحر الوهج الذى ينتفض من كل ذرة فى جسدها وتبتسم عيناها راضية وينتفض قلبها وتضطرم فى نفسها شتى الانفعالات ، وتسبل أجفانها وتحلم . . ثم تفتحها منزعجة صارخة .

* * *

وتأوى إلى فراشها امرأة فاضلة كما كانت أبداً .

فهرس

صفحة

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر